

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفْسِير

سُورَةُ هُدٍ

بقلم

سليمان بن محمد الهميد

١ / رمضان / ١٤٣٩ هـ

## مقدمة

قال ابن عاشور : سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود ، ولا يعرف لها اسم غير ذلك ، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال : طيا رسول الله قد شبت ، قال : شيبني هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت .

وسميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات ، ولأن ما حكى عنه فيها أطول مما حكى عنه في غيرها ، ولأن عاداً وصفوا فيها بأنهم قوم هود في قوله ( أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودِ ) .

● قال القرطبي بعد أن ساق بعض الأحاديث في فضل هذه السورة. ففي تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس. وتشيب منه الرؤوس .

● قال ابن عاشور : جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية .

● أغراضها :

قال ابن عاشور : ابتدأت بالإيماء إلى التحدي لمعارضة القرآن بما تومئ إليه الحروف المقطعة في أول السورة.

وباتلائها بالتنويه بالقرآن.

وبالنهى عن عبادة غير الله تعالى.

وبأن الرسول عليه الصلاة والسلام نذير للمشركين بعذاب يوم عظيم وبشير للمؤمنين بمتاع حسن إلى أجل مسمى.

وإثبات الحشر.

والإعلام بأن الله مطلع على خفايا الناس.

وأن الله مدبر أمور كل حي على الأرض.

وخلق العوالم بعد أن لم تكن.

وأن مرجع الناس إليه ، وأنه ما خلقهم إلا للجزاء.

وتثبيت النبي ﷺ وتسليته عما يقوله المشركون وما يقترحونه من آيات على وفق هواهم ( أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ

مَعَهُ مَلَكٌ ) .

وأن حسبهم آية القرآن الذي تحداهم بمعارضته فعجزوا عن معارضته فتبين خذلانهم فهم أحقاء بالخسارة في الآخرة.

وضرب مثل لفريقي المؤمنين والمشركين.

وذكر نظرائهم من الأمم البائدة من قوم نوح وتفصيل ما حل بهم وعاد وثمود ، وإبراهيم ، وقوم لوط ، ومدين ، ورسالة موسى ،

تعريضا بما في جميع ذلك من العبر وما ينبغي منه الحذر فإن أولئك لم تنفعهم آلهتهم التي يدعونها.

وأن في تلك الأنبياء عظة للمتبعين بسيرهم.

وأن ملاك ضلال الضالين عدم خوفهم عذاب الله في الآخرة فلا شك في أن مشركي العرب صائرون إلى ما صار إليه أولئك.

وانفردت هذه السورة بتفصيل حادث الطوفان وغيضه.

( الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ( ١ ) )

[ هود : ١ ] .

( الر ) هذه من الحروف المقطعة وقد تقدم الكلام عليها .

فقيل : هِيَ مِمَّا اسْتَأْتَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ ، وَقِيلَ : هِيَ أَسْمَاءٌ لِّلسُّورِ الَّتِي افْتَتِحَتْ بِهَا ، وَقِيلَ : هِيَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ : أَمَّا الْقَوْلُ الَّذِي يَدُلُّ اسْتِفْرَاءَ الْقُرْآنِ عَلَى رُجْحَانِهِ فَهُوَ : أَنَّ الْحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ ذُكِرَتْ فِي أَوَائِلِ السُّورِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ مَعَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ تَيْمِيَّةَ ، وَشَيْخُنَا الْحَافِظُ الْمُجْتَهِدُ أَبُو الْحَجَّاجِ الْمَرْزِيُّ ، وَحَكَاهُ لِي عَنْ ابْنِ تَيْمِيَّةَ .

وَوَجْهُ شَهَادَةِ اسْتِفْرَاءِ الْقُرْآنِ لِهَذَا الْقَوْلِ : أَنَّ السُّورَ الَّتِي افْتَتِحَتْ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ يُذَكَّرُ فِيهَا دَائِمًا عَقِبَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الْإِنْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ .

قَالَ تَعَالَى فِي «الْبَقَرَةِ» ( الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ) .

وَقَالَ فِي «آلِ عِمْرَانَ» ( الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ) .

وَقَالَ فِي «الْأَعْرَافِ» ( المص كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ) .

وَقَالَ فِي سُورَةِ «يُونُسَ» ( الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ) .

وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ سُورَةَ «هُودٍ» ( الر كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ) .

( كِتَابٌ ) والمراد به القرآن العظيم .

ووسمي القرآن كتاباً :

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ : كما قال تعالى ( بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ) .

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة : قال تعالى ( فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ )

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا ، ونقرؤه من هذه الكتب .

( أَحْكَمَتْ ) أي : هذا الكتاب الذي أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، فقد أحكم الله آياته إحكاماً

بديعاً ، وأتقنها إتقاناً معجزاً ، بحيث لا يتطرق إليها خلل أو فساد .

● قال القرطبي : أحسن ما قيل في معنى ( أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ) قول قتادة ؛ أي جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل .

والإحكام منع القول من الفساد ، أي نُظِمَتْ نَظْمًا مُحْكَمًا لَا يَلْحَقُهَا تَنَاقُضٌ وَلَا خَلَلٌ .

● فمن إحكامه : أن الآيات الواردة فيه غير متناقضة ، والتناقض ضد الإحكام فإذا خلت آياته عن التناقض فقد حصل

الإحكام .

وأيضاً : ألفاظ هذه الآيات بلغت في الفصاحة والجزالة إلى حيث لا تقبل المعارضة ، وهذا أيضاً مشعر بالقوة والإحكام .

● إشكال وجواب :

في هذه الآية وصف القرآن كله بأنهم محكم .

وجاء في آية ثانية وصفه بأنه متشابه : قال تعالى ( اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

رَبَّهُمْ ) .

وجاء في آية أخرى وصفه بأن منه محكم ومنه ما هو متشابه : قال تعالى ( هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ) .

والجواب :

فقوله ( كِتَابٌ مُحْكَمٌ ) الإحكام العام ، فالقرآن كله محكم ، أي : أنه متقن في ألفاظه ، ومعانيه ، وإعجازه ، أخباره صدق ، وأحكامه عدل ، لا تعتريه وصمة ولا عيب .

وأما القرآن كله متشابه : أي أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الحسن ، والصدق ، والحق ، والإعجاز ، والسلامة من جميع العيوب وأما وصغ القرآن بأن بعضه محكم وبعضه متشابه في قوله تعالى ( مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ) فالمراد به الإحكام الخاص ، والتشابه الخاص .

المحكم الواضح المعنى الظاهر الدلالة ، والمتشابه : ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالاته ( ثُمَّ فَصَّلَتْ ) أي : ثم فصل - سبحانه - هذه الآيات تفصيلاً حكيماً ، بأن أنزلها نجوماً ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة على ما يسعد الناس في دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحكام .

● قال الرازي : قوله تعالى ( ثُمَّ فَصَّلَتْ ) فيه وجوه :

أحدها : أن هذا الكتاب فصل كما تفصل الدلائل بالفوائد الروحانية ، وهي دلائل التوحيد والنبوة والأحكام والمواعظ والقصص . والثاني : أنها جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية .

الثالث : ( فَصَّلَتْ ) بمعنى أنها فرقت في التنزيل وما نزلت جملة واحدة ، ونظيره قوله تعالى ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مَفْصَلَاتٍ ) والمعنى مجيء هذه الآيات متفرقة متعاقبة . الرابع : فصل ما يحتاج إليه العباد أي جعلت مبينة ملخصة .

الخامس : جعلت فصولاً حلالاً وحراماً ، وأمثالاً وترغيباً ، وترهيباً ومواعظ ، وأمراً ونهيّاً لكل معنى فيها فصل ، قد أفرد به غير مختلط بغيره حتى تستكمل فوائد كل واحد منها ، ويحصل الوقوف على كل باب واحد منها على الوجه الأكمل .

● قال ابن كثير : أي : هي محكمة في لفظها ، مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى .

( مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ ) أي : من عند الله الحكيم في أقواله ، وأحكامه .

● والحكيم اسم من أسماء الله تعالى .

قال ابن كثير : الحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالها بحكمته وعدله .

● قال ابن القيم : وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة : أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئاً عبثاً ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل ، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة ، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل .

● وقال السعدي : فالله لا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يشرع سدى ، الذي له الحكم في الأولى والآخرة ، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك ، فيحكم بين عباده في شرعه ، وفي قدره ، وجزائه ، والحكمة : وضع الأشياء مواضعها ، وتنزيلها منازلها .

هو سبحانه حكيم في صنعه ، وحكيم في شرعه ، فجميع مصنوعاته كلها محكمة ، قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبداً .

● قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة، وكذلك الحيوانات، وكذلك جميع المخلوقات، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا).

● نستفيد من معرفتنا أن الله حكيم في كل أفعاله: اقتناع الإنسان بما يجري عليه وما يوجهه الله عليه، لأن ما يجريه الله - عز وجل - من الأحكام مقرون بالحكمة، فإذا علمت هذا يقينياً اقتنعت سواء كان هذا من الأحكام الكونية أو الأحكام الشرعية، حتى المصائب التي تنال العباد لاشك أن لها حكمة.

رابعاً: الرضا بالقضاء والقدر. ???

( خَبِيرٌ ) الخبير بعواقب الأمور.

أي : هذا الكتاب الذي أتقنت آياته إتقاناً بديعاً، وفصلت تفصيلاً رصيناً، ليس هو من عند أحد من الخلق، وإنما هو من عند الخالق الحكيم في كل أقواله وأفعاله، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها.

● قال الشوكاني: وفي قوله مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ لف ونشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها خبير، عالم بمواقع الأمور .

● والخبير اسم من أسماء الله تعالى .

ومعناه العليم ببواطن الأمور ، (المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها) ، المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور.

● قال ابن عاشور: الخبير العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة ، والظاهرة والخفية.

● الآثار المترتبة على معرفتنا لهذا الاسم:

أولاً: يجب على الإنسان أن يحذر من كتم النفاق أو الحسد أو غيرها من أمراض القلوب ، لأن الله مطلع على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية.

ولذلك أمرنا سبحانه أن نتقيه ونعمل بما يجب ، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه ويغضبه ، فقال تعالى (وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

وقال تعالى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون).

وقال سبحانه (وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً).

ثانياً: وجوب مراقبة الله تعالى .

ثالثاً: أن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بمن يستحق الهداية منهم ممن لا يستحقها ، بصير بمن يصلح حاله بالغنى والمال ، وبمن يفسد حاله بذلك (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ).

رابعاً: اليقين بأن الله هو الخبير العالم ببواطن الأمور وخفياتها ، عالم بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن كيف كان سيكون .. ، لا يفوته من العلم شيء وان كان صغيراً سرّاً دقيقاً ، وهذا الله وحده لا يشاركه فيه أحد من خلقه.

والإيمان بأن الله خبير عليم بأعمال عباده وأقوالهم، وما يجول في صدورهم من خير أو شر، قال تعالى (وَكَفَىٰ بَرِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) فيوقن العبد أنه مكشوف أمام الله، لا تخفى على الله منه خافية، فيراقب الله في جميع أحواله وخواطره وقلبه بتهديب سره وتطهير باطنه، ويخلص أعماله لله .

قال الشيخ ابن عثيمين: وقرن تعالى هنا بين الحكيم والخبير (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ) ليعلم الناس أن حكمة الله عز وجل عن خبرة وعلم ببواطن الأمور ، وعلى هذا فقد تكون خفية عن كثير من الناس ، لأنه لا يدرك الحكمة إلا

من كان خبيراً.

## الفوائد :

- ١- بيان إعجاز هذا القرآن العظيم .
- ٢- أن من أسماء القرآن الكتاب .
- ٣- الثناء العظيم على القرآن بأنه محكم .
- ٤- وجوب الإيمان القطعي بأن القرآن محكم كامل لا خلل فيه ولا نقص .
- ٥- أن إيمان المسلم بذلك يزيده قوة وارتباطاً بالقرآن وتمسكاً به .
- ٦- من أسماء الله الحكيم .
- ٧- وجوب الاستسلام لأوامر الله وأحكامه ، لأنه صادرة من حكيم خبير مطلع على كل شيء .

( أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) )

[ هود : ٢ ] .

-----

( أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ) جملة تعليلية، أي : أنه- سبحانه- فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير، لكي تخلصوا له العبادة والطاعة، وتتركوا عبادة غيره لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة.

● قال ابن كثير : أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له .

كما قال تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ) .

قال تعالى ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ) .

● قال الشنقيطي : هذه الآية الكريمة فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها: هي أن يعبد

الله جل وعلا وحده، ولا يشرك به في عبادته شيء، لأنه قوله جل وعلا ( كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ

خَبِيرٍ \* أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ) الآية؛ صريح في أن آيات هذا الكتاب فصلت من عند الحكيم الخبير لأجل أن يعبد الله وحده .

فمعنى الآية: أن حاصل تفصيل القرآن هو أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به شيء. ونظير هذا المعنى قوله تعالى في سورة

الأنبياء ( قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ) ومعلوم أن لفظه ( إنما ) من صيغ الحصر ، فكأن جميع ما

أوحى إليه منحصر في معنى ( لا إله إلا الله ) لأن معناها. خلع جميع المعبودات غير الله جل وعلا في جميع أنواع العبادات ،

وإفراجه جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادات ، فيدخل في ذلك جميع الأوامر والنواهي القولية والفعلية والاعتقادية.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل ، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جداً .

كقوله ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ) .

وقوله ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ) .

● وأصل العبادة في لغة العرب: الذل والخضوع، وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، فالعبادة: الذل والخضوع على وجه

المحبة خاصة، فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة، لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً

عن محبة الله يُغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك، وإذا كانت محبة خالصة لا خوف معها، فإن المحب الذي لا

يُدخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله عز وجل لا يليق به شيء من ذلك (قاله

الشنقيطي).

- فالعبادة تطلق على معنيين: أحدهما: التبعيد: يعني التذلل لله، كما سبق.
- وتطلق على المتعبد به (بالنسبة لأفعال العباد) وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة القلبية والجوارحية. (ذكر ذلك ابن تيمي
- وجوب عبادة الله تعالى ، وقد جاءت النصوص الآمرة بذلك:
- قال تعالى (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).
- وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).
- وقال تعالى (فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا).
- وقال تعالى (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِنِّيَآهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).
- وقال تعالى (بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).
- وقال تعالى (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ).
- وأمر تعالى بعبادته حتى الموت فقال تعالى (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ).
- بل الناس ما خلقوا إلا لعبادة الله تعالى كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).
- وأمر الله بما جميع رسله:
- كما قال نوح لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ)، وكذلك قال هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم.
- وأخبر الله أنه أرسل في كل أمة رسولا لهذا الغرض.
- قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).
- ووصف ملائكته بذلك.
- فقال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ).
- ونعت صفوة خلقه بالعبودية له:
- فقال تعالى (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) وقال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا).
- وقد نعت الله نبيه بالعبودية في أكمل أحواله:
- فقال في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا).
- وقال في الإيحاء (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ).
- وقال في الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا).
- وقال في التحدي (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ).
- ( إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ) بيان لوظيفة الرسول ﷺ .
- قال ابن كثير : أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا، فقال يا معشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم ، أستمتم مصدقي؟" فقالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: "إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

الفوائد :

١- وجوب عبادة الله تعالى .

٢- أن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة .

٣- تحريم عبادة غير الله .

٤- أن مهمة الرسل الإنذار والتبشير .

٥- تحذير وتهديد كل من عبد غير الله .

٦- تبشير كل من عبد الله واتقاه .

( وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) ) .

[ هود : ٣ ] .

( وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ) أي: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه، وأن تستمروا على ذلك .

• وهذا معطوف على قوله ( ألا تعبدوا ) من عطف الأمر على النهي .

والاستغفار طلب المغفرة ، والغفر الستر والتغطية ، والمراد ستر الأمور وتغطيتها بعفو الله تعالى .

( ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ) أي : ارجعوا إليه تائبين من كل ذنب ، بالندم ، والإقلاع عن المعصية ، والعزم على عدم العودة .

• وفائدة الترتيب ( بثم ) أن يكون قد يستغفر ثم يبقى متلبساً بالذنوب .

• قال ابن القيم : الاستغفار نوعان :

مفرد ومقرون بالتوبة .

فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه : ( فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ) . وكقول صالح لقومه ( لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ) .

والمقرون كقوله تعالى ( اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ) . وقول هود لقومه ( اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ) . .

فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، فالاستغفار يتضمن التوبة والتوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند اقتراح إحدى اللفظتين بالأخرى فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله، فها هنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه ، طلب وقاية شره وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقبه شر ما مضى ورجوع إليه ليقبه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله .

( يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ) هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أي يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم .

أي: في الدنيا ، بأن يبدل خوفكم أمنا، وفقركم غنى، وشقاءكم سعادة.

فالمُرَادُ بِالْمَتَاعِ الْحَسَنِ : سَعَةُ الرِّزْقِ ، وَرَغَدُ الْعَيْشِ ، وَالْعَافِيَةُ فِي الدُّنْيَا ، ومثله الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى ( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) .

● قال الشنقيطي : والدليل أن المراد به المتاع الدنيوي قوله تعالى بعد ذلك (وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ) وقوله تعالى في نفس السورة في قصة هود مع قومه ( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ) .

ويدل لذلك أيضاً قوله تعالى (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) فإن النعيم الذي له أجل مسمى – أي محدود له أجل ينتهي عنده – هو نعيم الدنيا ، أما نعيم الآخرة فلا ينتهي له .

(إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) أي : إلى نهاية حياتكم التي قدرها الله لكم في هذه الدنيا .

المُرَادُ بِالْأَجَلِ الْمُسَمًّى : الْمَوْتُ .

● فكل نفس سوف تموت :

كما قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُمُ بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ) .

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) .

وقال تعالى (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) .

وقال تعالى (قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفَرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ) .

● وفي هذا فضل الاستغفار والتوبة إلى الله ، وهو سبب لأن يمتنع الله من فعل ذلك متاعاً حسناً إلى أجل مسمى .

كما في قوله تعالى في هذه السورة الكريمة عَنْ نَبِيِّ هُودٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ) .

وقوله تعالى عَنْ «نُوحٍ» ( فَكُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ) .

وقوله تعالى ( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ) .

وقوله تعالى ( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ )

وقوله تعالى ( وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَحْمَةٍ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ) .

والاستغفار سبب لتكفير السيئات ورفع الدرجات .

قال تعالى ( وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ) .

وفي الحديث القدسي ( قال الله : من يستغفري فأغفر له .. ) متفق عليه .

وقوله تعالى في الحديث القدسي ( فاستغفروني أغفر لكم ) رواه مسلم .

وهو سبب لحصول القوة في البدن .

قال هود لقومه ( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ) .

وهو سبب لدفع المصائب ورفع البلياء .

قال تعالى ( وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) .

وسبب لبياض القلب .

قال ﷺ ( إن المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ) رواه أحمد .

## من أقوال السلف :

قال بعض العلماء : طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً .

وكان ابن عمر : يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول : إنكم لم تذبوا .

وقال قتادة : إن هذا القرآن يدلکم على دوائکم ودوائکم ، فأما دواؤکم فالذنوب ، وأما دواؤکم فالاستغفار .

وقال رباح القيسي : لي نيف وأربعون ذنباً ، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة .

وقال الحسن : لا تملؤا من الاستغفار .

وقال بكر المزني : إن أعمال بني آدم تُرفع فإذا رُفعت صحيفته فيها استغفار رُفعت بيضاء ، وإذا رُفعت ليس فيها استغفار رُفعت

سوداء .

وعن الحسن قال : أكثروا من الاستغفار في بيوتكم ، وعلى مواثدكم ، وفي طُرُقكم ، وفي أسواقكم ، فإنكم لا تدرن متى تنزل

المغفرة .

قال لقمان لابنه : أيُّ بُيِّ عَوْدٍ لسانك : اللهم اغفر لي ؛ فإن الله ساعات لا يرد فيها سائلاً .

ورئي عمر بن عبد العزيز في النوم فقيل له : ما وجدت أفضل ؟ قال : الاستغفار .

فائدة :

قال تعالى ( وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ يَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ) .

● قال الرازي : لم سمى منافع الدنيا بالمتاع ؟

الجواب : لأجل التنبيه على حقاقتها وقلتها ، ونبه على كونها منقضية بقوله تعالى ( إلى أجلٍ مُّسمًى ) فصارت هذه الآية دالة على كونها حقيرة خسيصة منقضية .

● قال الحازن : فإن قلت قد ورد في الحديث ( إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ) وقد يضيق على الرجل في بعض أوقاته

حتى لا يجد ما ينفقه على نفسه وعياله فيكف الجمع مبين هذا وبين قوله سبحانه وتعالى ( يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل

مسمى ) .

قلت أما قوله ﷺ ( الدنيا سجن المؤمن ) فهو بالنسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من الثواب الجزيل والنعيم المقيم فإنه في سجن في الدنيا حتى يفضي إلى ذلك المعد له .

وأما كون الدنيا جنة الكافر فهو النسبة إلى ما أعد الله له في الآخرة من العذاب الأليم الدائم الذي لا ينقطع فهو في الدنيا في جنة حتى يفضي إلى ما أعد الله له في الآخرة وأما ما يضيق على الرجل المؤمن في بعض الأوقات فإنما ذلك لرفع الدرجات وتكفير السيئات وبيان الصبر عند المصيبات فعلى هذا يكون المؤمن في جميع أحواله في عيشة حسنة لأنه راض عن الله في جميع أحواله .

( وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ) أي: في الدار الآخرة ، أي: ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .

فالمراد بالفضل الأول: العمل الصالح . والمراد بالفضل الثاني الثواب الجزيل من الله - تعالى - .

فالجملة الكريمة ، وعد كريم عن الله - تعالى - لكل من آمن وعمل صالحاً .

قال تعالى ( مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) .

( وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ) هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى ، وكذب رسله ، فإن العذاب

يناله يوم معاده لا محالة .

● وفي وصفه بالكبر ، زيادة - أيضاً - في تهويله وشدته ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويقبلوا عن غيهم وعنادهم .

(إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ) أي: معادكم يوم القيامة .

أي : إلى الله- تعالى- وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم، ليحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء، وهو- سبحانه- على كل شيء قدير، لا يعجزه أمر، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل. وما دام الأمر كذلك، فأخلصوا لله العبادة، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة. ( وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أي: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

#### الفوائد :

١- فضل عظيم للاستغفار والتوبة ، وأنه سبب للحياة الطيبة السعيدة .

٢- الحث على كثرة الاستغفار .

٣- من علامة التوبة المقبولة :

أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

أنه لا يزال الخوف مصاحباً له ، لا يأمن مكر الله طرفة عين .

انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوراً .

٤- أن متاع الدنيا قليل زائل .

٥- أن متاع الآخرة باق لا يزول .

٦- كل نفس ذائقة الموت ، فكل إنسان سوف يموت .

٧- تهديد من تولى وأعرض وكذب بالله ورسله .

٨- شدة يوم القيامة على الكافرين .

٩- إثبات البعث والحساب والجزاء .

١٠- عموم قدرة الله ، وأنه قادر على الإحياء بعد الإماتة ، وعلى جمع الناس وحسابهم .

( أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ) (٥) .

[ هود : ٥ ] .

-----

( أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ) يَنْتُونُ من النبي بمعنى الطي والستر. يقال: ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة ، وثني الصدور: إمالتها وطأطأها وحنيتها بحيث تكون القامة غير مستقيمة. والاستخفاء: محاولة الاختفاء عن الأعين، ومنه قوله تعالى يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ، و( يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ) أي : يتدثرون ويتغطون بها، مبالغة في الاستخفاء عن الأعين.

وقد اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية على أقوال ذكرها العلماء : ملخصها :

قيل : نزلت في بعض المنافقين ، كَانَ إِذَا مَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ ثَنَى صَدْرَهُ وَظَهَرَهُ ، وَطَوَّطَأَ رَأْسَهُ وَعَطَى وَجْهَهُ لِكَيْلَا يَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْعُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ .

وقيل : نزلت في قوم كانوا لشدة عداوتهم رسول الله ﷺ إذا سمعوا منه القرآن حنوا صدورهم ، ونكسوا رؤوسهم ، وتغشوا ثيابهم

ليبعد عنهم صوت رسول الله ﷺ ولا يدخل أسماعهم شيء من القرآن

وقيل : نزلت في الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً حُلُو الكلام حُلُو المنطق ، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء .

وقيل : ( يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ ) أي : يطوونها على عداوة المسلمين فيه هذا الحذف ، قال ابن عباس : يخفون ما في صدورهم من الشَّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه .

وَقِيلَ : كَانُوا إِذَا عَمِلُوا سُوءًا نَتَوُا صُدُورَهُمْ وَعَطَّوْا رُءُوسَهُمْ ، يَنْتُونُ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ أَخْفَوْا بِهِ عَمَلَهُمْ عَلَى اللَّهِ جَلًّا وَعَلَا ، وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ .  
والله أعلم .

والمقصود : أن هذا إخبار عن معاداة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم .

( أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نَبِيَّهِمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ) أي : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم، ويتدثرون بثيابهم، يعلم الله تعالى ما يسرونه في قلوبهم من أفكار، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال، لأنه سبحانه محيط بما تضره النفوس من خفايا، وما يدور بها من أسرار .

( إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ) أي : بما فيها من الإرادات ، والوسوس ، والأفكار التي لم ينطقوا بها سرّاً ولا جهراً ، فكيف تخفى عليه حالكم ، إذا أنثيت صدوركم لتستخفوا منه .

● ومعنى (ذات الصدور) أي: صاحبة الصدور وهي القلوب، لأنها في الصدور كما قال تعالى (إِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ).

والمعنى: أن الله تعالى يعلم ما في القلوب التي في الصدور وما فيها من المكونات والخفيات، لأن القلوب عليها مدار التقوى والصلاح كما قال ﷺ (التقوى ههنا) وأشار ﷺ إلى صدره، وقال ﷺ : إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ألا وهي القلب .

● قال السعدي قوله تعالى ( إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ) أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم

الفوائد :

١- عموم علم الله لكل شيء .

٢- تهديد شديد ووعيد عظيم لمن يبطن في قلبه الخبث والعداء للإسلام وغيرها من أمراض القلوب .

٣- جهل هؤلاء الكفار ، حيث يعتقدون أن الله لا يعلم ما تنطوي عليه القلوب .

٤- وجوب الإيمان بأن الله يعلم كل شيء .

٥- أن من أيقن بعموم علم الله للسر والعلن ، فإن ذلك يقوده إلى التقوى والإخلاص وطهارة القلب .

قال الشنقيطي : اعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ وَعِظًا أَكْبَرَ ، وَلَا رَاجِرًا أَعْظَمَ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ وَأَمثالها في القرآن ، مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُهُ خَلْقُهُ ، رَقِيبٌ عَلَيْهِمْ ، لَيْسَ بِعَائِبٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ، وَضَرَبَ الْعُلَمَاءُ لِهَذَا الْوَعِظِ الْأَكْبَرَ ، وَالرَّاجِرِ الْأَعْظَمِ مَثَلًا لِيَصِيرَ بِهِ كَالْمَحْسُوسِ ، فَقَالُوا : لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ مَلِكًا قَتَلَا لِلرَّجَالِ ، سَقَاكَ لِلدِّمَاءِ ، شَدِيدَ الْبُطْشِ وَالنَّكَالِ عَلَى مَنْ انْتَهَكَ حُرْمَتَهُ ظُلْمًا ، وَسَيَافُهُ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، وَالنَّطْعُ مَبْسُوطٌ لِلْقَتْلِ ، وَالسَّيْفُ يَقْطُرُ

دَمًا ، وَحَوْلَ هَذَا الْمَلِكِ الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ حَوَارِيهِ وَأَزْوَاجُهُ وَبَنَاتُهُ ، فَهَلْ تَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْحَاضِرِينَ يَهُمُّ بِرِيئَةٍ أَوْ بِحَرَامٍ يَنَالُهُ مِنْ بَنَاتِ ذَلِكَ الْمَلِكِ وَأَزْوَاجِهِ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَامًّا بِأَنَّهُ مُطَّلَعٌ عَلَيْهِ ؟ ! لَا ، وَكَأَلَّا ! بَلْ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ يَكُونُونَ خَائِفِينَ ، وَجِلَّةً قُلُوبُهُمْ ، خَاشِعَةً عُيُونُهُمْ ، سَاكِنَةً حَوَارِحُهُمْ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ ذَلِكَ الْمَلِكِ .

وَلَا شَكَّ «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى» أَنَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَلَّ وَعَلَا أَشَدُّ عِلْمًا ، وَأَعْظَمُ مُرَاقَبَةً ، وَأَشَدُّ بَطْشًا ، وَأَعْظَمُ نَكَالًا وَعُقُوبَةً مِنْ ذَلِكَ الْمَلِكِ ، وَجَمَاهُ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، فَإِذَا لَاحَظَ الْإِنْسَانُ الضَّعِيفُ أَنَّ رَبَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَيْسَ بِعَائِبٍ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ مُطَّلَعٌ عَلَى كُلِّ مَا يَفْعَلُ وَمَا يَنْوِي لِأَنَّ قَلْبَهُ ، وَخَشِيَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا .

الجمعة: ٢/ رمضان/ ١٤٣٩هـ

( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) ) .

[ هود : ٦ ] .

( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ) يخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات، من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها، وبريها .

● والرزق : ما يسوقه الله لخلقه ليقوم به شؤون حياته .

قيل لأبي أسيد : من أين تأكل؟ فقال : سبحان الله والله أكبر إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد .

وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل؟ فقال : من عند الله ؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء؟ فقال : كأن ما له إلا السماء يا هذا الأرض له والسماء له ؛ فإن لم يؤتني رزقي من السماء ساقه لي من الأرض ؛ وأنشد :

وكيف أحافُ الفقرَ والله رازقي . . . ورازق هذا الخلق في العسرِ واليسرِ

تَكْفُلُ بِالْأَرْزَاقِ لِلْخَلْقِ كُلِّهِمْ . . . وَلِلضَّبِّ فِي الْبِيدَاءِ وَالْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ

( وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ) أي: يعلم أين مُنتهى سيرها في الأرض، وأين تأوي إليه من وكرها، وهو مستودعها.

وقيل : ( وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ) أي: حيث تأوي ( وَمُسْتَوْدَعَهَا ) حيث تموت .

( كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ) أي : وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك ، وهو اللوح المحفوظ .

فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها ، وأحاط علماً بذواتها ، وصفاتها .

● ما قال تعالى ( وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ) .

وقوله تعالى ( وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ) .

● وللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الخلائق: سماه القرآن بالكتاب .

كما في قوله تعالى ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ) .

وبالإمام المبين ، كما في قوله تعالى ( وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ) .

وبالكتاب المسطور ، كما في قوله تعالى ( وَالطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ) .

وبأم الكتاب ، كما قال تعالى ( وَإِنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ) .

## الفوائد :

- ١- أن الله متكفل كل دابة على وجه الأرض .
- ٢- أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .
- ٣- أن الرزاق هو الذي يستحق العبادة والخضوع .
- ٤- على الإنسان أن يطمئن ، فإن قد تكفل برزقه .
- ٥- عموم علم الله بكل شيء .
- ٦- الإيمان بأن الله يعلم كل شيء ، وأن كل شيء مكتوب .  
وهذه من مراتب الإيمان بالقدر .  
فإن الإيمان بالقدر لا يتم إلا بأربعة أمور :  
منها : الإيمان بعلم الله الشامل .

معناه : الإيمان بأن الله تعالى قد علم بعلمه الأزلي الأبدي ما كان وما يكون من صغير ، وكبير ، وظاهر ، وباطن مما يكون من أفعاله أو أفعال مخلوقاته .

دليل هذه المرتبة :

قال تعالى : ( هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ) .

وقال تعالى : ( لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ) .

ومنها : أن الله كتب في اللوح المحفوظ كل شيء .

ومعناه : الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ، فما من شيء كان أو يكون إلا وهو مكتوب مقدر قبل أن يكون .

ودليل هذه المرتبة :

قوله تعالى ( ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ) .

عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ) . رواه مسلم .

وهناك آية فيها دليل لكلا المرتبتين :

قال تعالى ( ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ) .

( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنَّ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنَّ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجِبُ لَهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) ) .

[ هود : ٧ - ٨ ] .

( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ) أي : الذي أوجدها على تقدير محكم ، لأن الأصل أن الخلق لغة هو التقدير .

والله يحمد على ذلك كما قال تعالى ( الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ) .

● وإنما ذكر السموات والأرض ، لأنهما من أعظم المخلوقات .

- وخلقهما بالحق كما سيأتي إن شاء الله .

قال تعالى ( وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ )

أي: وليس عبثاً ، فإن الله منزه عن العبث ، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة ، فالحق ضد الباطل ، فالله خلقهما لحكم باهرة ، لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً ولا لعباً

كما قال تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ) .

وقال تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ) .

وقال تعالى ( وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ) .

( فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة .

- قال ابن عطية: وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتدئ يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء .

- وقال القرطبي: قوله تعالى ( فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) من يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة .

- وقال ابن كثير: والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام .

- وقد اختلف في مقدار هذه الأيام:

ف قيل: كأيامنا هذه .

لأن الله أطلقها، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه .

وقيل: كل يوم مقدار خمسين ألف سنة .

وقيل: المراد باليوم لحظة .

والراجح الأول .

- فإن قيل: أليس الله بقادر على أن يخلقها في لحظة؟

فالجواب: بلى، لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

قال تعالى ( بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) .

وقال تعالى ( ... قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) .

وقال تعالى ( هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) .

- وإنما خلقها في ستة أيام لحكمتين:

**الحكمة الأولى:** أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض، فرتب الله بعضها على بعض حتى أحكمها .

**الحكمة الثانية:** أن الله علم عباده التوادة والتأني، وأن الأهم إحكام الشيء لا الفراغ منه .

- هذه الأيام أربعة منها للأرض، ويومان للماء، كما فصل ذلك في سورة فصلت ( قُلْ أَتُنْكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي

يَوْمَيْنِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

سِوَاءَ لَيْلَتَيْ لَيْلٍ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)

فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ... ) .

- قال الإمام القرطبي: وذكر هذه المدة - أي ستة أيام - ولو أراد خلقها في لحظة لفعل؛ إذ هو القادر على أن يقول لها كوني

فتكون، ولكنه أراد:

- أن يعلم العباد الفرق والتثبت في الأمور.
- ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء ... .
- وحكمة أخرى: خلقها في ستة أيام؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً، وبين بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب؛ لأن لكل شيء عنده أجلاً ... .

● **وقال ابن الجوزي:** فإن قيل: فهلا خلقها في لحظة، فإنه قادر؟ فعنه خمسة أجوبة:  
أحدها: أنه أراد أن يوقع في كل يوم أمراً تستعظمه الملائكة ومن يشاهده، ذكره ابن الأنباري.  
والثاني: أنه التثبت في تمهيد ما خلق لآدم وذريته قبل وجوده، أبلغ في تعظيمه عند الملائكة.  
والثالث: أن التعجيل أبلغ في القدرة، والتثبيت أبلغ في الحكمة، فأراد إظهار حكمته في ذلك، كما يظهر قدرته في قوله (كن فيكون).

والرابع: أنه علم عباده التثبت، فإذا تثبت من لا يزال، كان ذو الزلل أولى بالتثبت.  
والخامس: أن ذلك الإمهال في خلق شيء بعد شيء، أبعد من أن يظن أن ذلك وقع بالطبع أو بالاتفاق. ا. هـ.  
● وقال القاضي أبو السعود ( ... وفي خلق الأشياء مدرجاً مع القدرة على إبداعها دفعة دليل على الاختيار، واعتبار للنظار، وحث على التأني في الأمور) ا.  
( **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ** ) أي : كان قبل خلقهما عرشه على الماء ، وفيه بيان تقدّم خلق العرش والماء على السموات والأرضين.

وقد جاء في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ ( إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء ) .  
والعرش: لغة عبارة عن السرير الذي للملك، سمي عرشاً لارتفاعه عليه  
وشرعاً: هو العرش الذي أضافه الله لنفسه وهو سرير عظيم ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم، وهو سقف هذه المخلوقات .

وقد ذكره الله في كتابه في سبعة مواضع ، وأنه استوى عليه سبحانه وتعالى استواء يليق بجلاله .  
وقد وصفه الله بأوصاف عظيمة.

وصفه بالعظمة:  
قال تعالى ( ورب العرش العظيم).

ووصفه بأنه كريم:

قال تعالى ( فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم).

ومدح نفسه سبحانه بأنه ذو عرش:

كما قال تعالى ( رفيع الدرجات ذو العرش).

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة:

قال تعالى ( الذين يحملون العرش ومن حوله ... ).

وقال تعالى ( ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية).

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض:

قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء).

وأخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس:

قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن).

وله قوائم:

قال ﷺ (لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ...).

● قال الشنقيطي : وفي هذه الآية دلالة على أن العرش موجود قبل خلق السماوات والأرض وأن الماء كان تحته ، ولم تكن حينئذ أرض ولا سماء .

( لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ) ولم يقل : أكثر عملاً .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى هنا (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ولم يقل أيكم أكثر عملاً.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنُبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون.

قال الشنقيطي : صرّح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه خلق السماوات والأرض لحكمة ابتلاء الخلق، ولم يخلقهما عبثاً ولا باطلاً، ونزّه نفسه تعالى عن ذلك، وصرّح بأن من ظن ذلك فهو من الذين كفروا وهدّدهم بالنار، قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

● وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى،

ولذلك فسر ذلك النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان؟ (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم.

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

● فعلى المسلم أن ينظر إلى إحسان العمل وإخلاصه لا إلى كثرته .

وإحسان العمل : اتقان العمل إخلاصاً ومتابعة .

قال ابن رجب : والحامل على ذلك أن يعبد العبد ربه كأنه يراه .

وعلم ﷺ معاذاً أن يقول ( اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ) .

وقد وصى ﷺ رجلاً أن يصلي صلاة مودع ، يعني يستشعر أنه يصلي صلاة لا يصلي بعدها صلاة أخرى ، فيحمله على ذلك إتقانها وتكميلها وإحسانها .

وقد وردت أحاديث فضائل الأعمال مقيدة بإحسان العمل .

كما في حديث أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ( إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ يُكْفِرُ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا ، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ الْقِصَاصُ ، الْحُسْنَةُ بَعْشَرِ أُمَّثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَحَاوَرَ اللَّهُ عَنْهَا )

وعن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا ) متفق عليه .

وعن عثمان . قال : قال ﷺ ( من توفياً فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياها من جسده ... ) رواه مسلم .

وكان السلف يوصون بإتقان العمل وتحسينه دون مجرد الإكثار منه ، فإن العمل القليل مع التحسين والإتقان أفضل من الكثير مع عدم الإتقان .

قال بعض السلف : إن الرجلين ليقومان في الصف وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

وقال بعض السلف : لا يقل عمل مع تقوى ، وكيف يقل ما يتقبل ؟ يشير إلى قوله تعالى ( إنما يتقبل الله من المتقين ) .

وقد جاء في صحيح مسلم قال ﷺ ( لا يتمنى أحدكم الموت ولا يدعُ به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً ) .

وجاء في حديث ( وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإجابة ) .

قال ابن تيمية : وفي الصحيحين ( إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلج لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها ) وفي لفظ في الصحيحين ( أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل ) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له ) .

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها ، وإلا فليس كل بغيا سقت كلباً يغفر لها .

وكذلك هذا الذي نُحَى غصن الشوك عن الطريق ، فعلة إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغفر له بذلك ، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص ، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، وليس كل من نُحَى غصن شوك عن الطريق يغفر له .

قال ابن المبارك : رب عمل صغير تكبره النية ، ورب عمل كبير تصغره النية .

( وَكُنْ قُلْتُ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ) يقول تعالى : ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم — مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض —

( لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ) أي: يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

( وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ) إمهالاً لا إهمالاً وغفلة .

( إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ) يقول تعالى : ولئن أخرجنا العذاب والمؤاخذه عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيباً واستعجالاً .

● قال ابن عاشور : و( معدودة ) معناه مقدره ، أي مؤجلة ، وفيه إيماء إلى أنها ليست مديدة لأنه شاع في كلام العرب إطلاق العَدِّ والحساب ونحوهما على التقليل ، لأن الشيء القليل يمكن ضبطه بالعدد ، ولذلك يقولون في عكسه : بغير حساب ، مثل ( والله يرزق من يشاء بغير حساب ) .

● أطلقت الأمة في القرآن على عدة معان اذكرها؟

أ-بمعنى الطائفة.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ... ) .

ب- بمعنى الإمام .

كما قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) .

ج- بمعنى الملة .

كقوله تعالى عن المشركين (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ... ) .

د- بمعنى الزمن .

كما في هذه الآية .

وكما قال تعالى (وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ... ) .

قال السعدي : أي: إلى وقت مقدر فتباطأوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم .

( لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ ) يعني العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيباً للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالاً واستهزاء ؛ أي ما الذي يجسه

عنا . ( القرطبي ) .

● قال السعدي : ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع

العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال .

( أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ ) العذاب .

( لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ) أي : ليس محبوساً عنهم ، بل واقع بهم لا محالة .

( وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) أي : أحاط بهم العذاب الذي كانوا يستعجلونه استهزاء منهم ، ووضع يستهزون مكان

يستعجلون ، لأن استعجالهم كان استهزاء منهم ، وعبر بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه ، فكأنه قد حاق بهم .

الفوائد :

١- أن الخالق هو الله .

٢- أن الخالق هو الذي يستحق العبادة ، قال تعالى ( أفمن يخلق كمن لا يخلق ) .

٣- حكمة الله تعالى في خلق السماوات والأرض في ستة أيام .

٤- أن أفعال الله قائمة على الحكمة .

٥- حكمة الله في خلق الكون : وهو الابتلاء والاختبار : أيهم أحسن عملاً .

٦- أهمية إحسان العمل .

٧- إحسان العمل وإتقانه أولى وأهم من كثرتة مع قل الإتقان .

٨- أن العبرة بالأعمال بما في القلوب من الإخلاص والإحسان .

٩- وجوب الإيمان بالبعث .

١٠- أن من أنكر البعث فهو كافر .

١١- حكمة الله في تأخير العذاب عن الكفار ، وأن الله يؤخر عنهم العذاب لحكمة لا إهمالاً .

١٢- أن وقوع عذاب الله له وقت محدد يعلمه الله .

١٣- أن عذاب الله إذا جاء لا يرد .

( وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كَفُورًا (٩) وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ) .  
[ هود : ٩ - ١١ ] .

( وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ كَفُورًا ) أي : ولئن منحنا الإنسان - بفضلنا وكرمنا - بعض نعمنا، كالصحة والغنى والسلطان والأمان ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ أي: ثم سلبناها منه، لأن حكمتنا تقتضي ذلك. إِنَّهُ في هذه الحالة لَيَكْفُرُ كَفُورًا أي : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع إليه ما سلب منه أو مثله، ولكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومنن.

● قال الشوكاني: وفي التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه: لأن الإذابة والذوق أقل ما يوجد به الطعم .

( وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ ) أي : ولئن أذقنا هذا الإنسان اليؤوس الكفور نَعْمَاءَ بعد ضِرَاءٍ مسته كصحة بعد مرض، وغنى بعد فقر، وأمن بعد خوف، ونجاح بعد فشل..  
( لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي ) أي : ليقولن في هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر، وغرور وتكبر، لقد ولت المصائب عني الأدبار، ولن تعود إلي .

( إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ) أي : لشديد الفرح والبطر بالنعمة: كثير التباهي والتفاخر بما أعطى منها، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه - سبحانه - .

● قال ابن عاشور : وشدة الفرح : تجاوزه الحد وهو البطر والأشر ، كما في قوله ( إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ) .  
والفخر : تباهي المرء على غيره بما له من الأشياء المحبوبة للناس .  
والمعنى أنه لا يشكر الله على النعمة بعد البأساء وَمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الضَّرَاءِ فلا يتفكر في وجود خالق الأسباب وَنَاقِلِ الْأَحْوَالِ ، والمخالف بين أسبابها .

● قال ابن القيم : قوله ( ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي ) لَوْ أَنَّهُ قَالَ أَذْهَبَ اللَّهُ السَّيِّئَاتِ عَنِّي بِرَحْمَتِهِ وَمِنْهُ لَمَا ذَمَّ عَلَى ذَلِكَ بَلْ كَانَ مَحْمُودًا عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُ غَفَلَ عَنِ الْمُنْعَمِ بِكَشْفِهَا وَنَسَبَ الذَّهَابَ إِلَيْهَا فَرِحَ وَافْتَخَرَ فَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ هَذَا مِنْ قَلْبِ عَبْدٍ فَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ سَبَابِ خِذْلَانِهِ وَتَخْلِيهِ عَنْهُ فَإِنْ مَحَلَّهُ لَا تَنَاسِبَهُ النَّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ النَّامَّةُ . ( الفوائد ) .

● وقال رحمه الله : وفي الحديث الصحيح : أن ثلاثة أراد الله أن يبتليهم أبرص وأقرع وأعمى فأظهر الابتلاء حقائقهم التي كانت في علمه قبل أن يخلقهم فأما الأعمى فاعترف بإنعام الله عليه وأنه كان أعمى فقيرا فأعطاه الله البصر والغنى وبذل للسائل ما طلبه شكرا لله وأما الأقرع والأبرص فكلاهما جحدا ما كان عليه قبل ذلك من سوء الحال والفقر وقال في الغنى إنما أوتيته كابرا عن كابر وهذا حال أكثر الناس لا يعترف بما كان عليه أولا من نقص أو جهل وفقر وذنوب وأن الله سبحانه نقله من ذلك إلى ضد ما كان عليه وأنعم بذلك عليه . ( شفاء العليل ) .

● إن قيل : ما وجه عيب الإنسان في قوله ( ذهب السيئات عني ) وما وجه ذمه على الفرح، وقد وصف الله الشهداء فقال ( فرحين ) ؟

فقد أجاب عنه ابن الأنباري ، فقال : إنما عابه بقوله ( ذهب السيئات عني ) لأنه لم يعترف بنعمة الله ، ولم يحمده على ما صُرف عنه ، وإنما ذمه بهذا الفرح ، لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبر عن طاعة الله .

● وإنما أيضاً لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، فلا يتذكر فيما مضى، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت، ولا يعتبر بتقلبات الأيام، فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة، وهو بطر فخور إذا عادت إليه، وهذا من أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مردولة. ( التفسير الوسيط ) .

● قال الرازي : قوله ( الإنسان ) في هذه الآية فيه قولان :

القول الأول : أن المراد منه مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه تعالى استثنى منه قوله ( إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر ، وذلك يدل على ما قلناه .

الثاني : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله تعالى ( والعصر . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) وموافقة أيضاً لقوله تعالى ( إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً \* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً \* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ) .

الثالث : أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز .

قال ابن جريج في تفسير هذه الآية يا ابن آدم إذا نزلت لك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزعت منك فيؤس قنوط .

والقول الثاني : أن المراد منه الكافر .

قالو : إن الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليق إلا بالكافر لأنه وصفه بكونه يؤوساً ، وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى ( إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ) ووصفه أيضاً بكونه كفوراً ، وهو تصريح بالكفر ووصفه أيضاً بأنه عند وجدان الراحة يقول ( ذهب السيئات عني ) وذلك جراءة على الله تعالى ، ووصفه أيضاً بكونه فرحاً ( والله لا يُحِبُّ الفرحين ) ووصفه أيضاً بكونه فخوراً ، وذلك ليس من صفات أهل الدين .

● قال الشنقيطي : في هذه الآية ذكر تعالى أن عادة الإنسان الجزع عندما يصيبه شر من فقر ومرض وغيرهما ، والبطر عندما يحصل له خير من عافية وغني وغيرهما ، فهو معيب في كلا طريقي الابتلاء ، فهو لا ينجح في الأمرين ، إذ لا يشكر نعمة ولا يصبر على نقمة .

وَقَدْ أَوْضَحَ جَلَّ وَعَلَا هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ :

كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ فَصَلت ( لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسُّ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَدَقَّنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرُّومِ ( وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آدَأَفَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ) .

وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا ( وَإِذَا آدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يُفْتَنُونَ ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ يَس ( وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا جُنُبَهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ ( وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ) .

وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا ( فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَا ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ) إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

● أما المؤمن الحق ، فقد بيّن النبي ﷺ أنه بخلاف ذلك : يشكر عند السراء ، ويصبر عند الضراء .

قال ﷺ ( عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ) .

• ثم استثنى الله من هذا الخلق السيء

( إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ) عند الضراء فلم يأسوا ، وعند السراء فلم يبطروا .

• قال الخازن : هذا استثناء منقطع معناه لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم ليسوا كذلك فإنهم إن نالتهم شدة صبروا وإن نالتهم نعمة شكروا عليها ( أولئك ) يعني من هذه صفتهم ( لهم مغفرة ) يعني لذنوبهم ( وأجر كبير ) يعني الجنة .

• قال ابن عاشور : ومن معاني الصبر انتظار الفرج ولذلك أوتر هنا وصف ( صبروا ) دون ( آمنوا ) لأن المراد مقابلة حالهم بحال الكفار في قوله ( إنه ليؤوس كفور ) .

ودل الاستثناء على أنهم متصفون بصد صفات المستثنى منهم .

وفي هذا تحذير من الوقوع فيما يماثل صفات الكافرين على اختلاف مقادير .

• وفي هذا فضل الصبر .

أولاً : معية الله للصابرين .

قال تعالى ( إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ) .

ثانياً : محبة الله لهم .

قال تعالى ( وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ) .

ثالثاً : إطلاق البشري لهم .

قال تعالى ( وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ) .

رابعاً : إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم .

قال تعالى ( وَلَنَجْزِيَنَّهُنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) .

خامساً : ضمان المدد والنصرة لهم .

قال تعالى ( بَلَى إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ) .

سادساً : استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم .

قال تعالى ( وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ) .

وقال تعالى ( وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ )

سابعاً : حفظهم من كيد الأعداء .

قال تعالى ( وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ) .

ثامناً : سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين .

قال تعالى ( وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ) .

قال ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . ثم تلا هذه الآية ( وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ) .

تاسعاً : أنه من أسباب النصر .

كما في حديث ابن عباس ( واعلم أن النصر مع الصبر ) .

عاشراً : أمر الله به المؤمنين .

قال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ) .

وقال تعالى ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) .

الحادي عشر : الصبر ضياء .

كما قال ﷺ ( والصبر ضياء ) .

قال ابن رجب : ولما كان الصبر شاقاً على النفوس ، يحتاج إلى مجاهدة النفس ، وحبسها وكفها عما تهواه ، كان ضياء ، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر .

الثاني عشر : أنه خير ما أعطي العبد .

قال ﷺ ( وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر ) رواه مسلم .

● فعلى المسلم أن يصبر ويتصبر حتى يتعود على الصبر .

عن أبي سعيد ( أَنَّ نَاساً مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِيَدِهِ ( مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدْجِرُهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَعْنِ يُعْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ . وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

● قال السعدي : وإنما كان الصبر أعظم العطايا ، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته ، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر ، فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله ، حتى يقوم بها ويؤديها ، وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله ، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها ، بل إلى صبر على نعم الله ومحوبات النفس ، فلا يدع النفس تفرح وتفرح الفرح المذموم ، بل يشتغل بشكر الله ، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر ، وبالصبر ينال الفلاح ، ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال ( وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ) ( سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ) وكذلك قوله ( أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ) .

فهم نالوا الجنة بنعيمها ، وأدركوا المنازل بالصبر ، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا يدري ما عاقبته ، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر ، فالعافية هي المطلوبة بالأصالة في أمور الابتلاء والامتحان ، والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته ، والله هو المعين .

( وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) من واجبات ومستحبات .

ولعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين: الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

فمن عمل عملاً أشرك به مع الله غيره ولو يسير الرياء كان عمله غير صالح، ومن أخلص لله لكن على غير شريعة رسول الله ﷺ كان عمله غير صالح .

● قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصلحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه.

● ودائماً يقرن الله العمل بالصالح، لأنه ليس كل عمل يقبل إلا إذا كان صالحاً.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ) .

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ... ) .

( أَوْلَيْكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ) يستر الله ذنوبهم جزاء صبرهم وشكرهم .

وفي هذا زوال المرهوب .

( وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ) أي : ثواب كبير عظيم ، وهو الجنة .

كما قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ) .

وقال تعالى ( وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ) .

والأجر في اللغة جزاء العمل .

● وسمي الثواب أجراً؛ لأنه سبحانه التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير .

● ووصفه بالكبر لما في الجنة من عظيم الشأن، لأن الله يقول فيها ( فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ) ، ولأجل هذا وصف هذا الجزاء بالعظم، وقد جاء مفصلاً في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في

غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال، والمشارب، والأواني والحلي والولدان وغيرها من النعيم، وأعلى ذلك النظر

إلى وجهه الكريم .

● وفي هذا حصول المطلوب

● وقدم المغفرة على الأجر العظيم، لأن التخلية قبل التحلية، فغفر لهم وطهرهم من الذنوب أولاً ثم آتاهم الأجر العظيم .

الفوائد :

١- شدة يأس الإنسان إذا أصابه ما يكره .

٢- قلة صبر الإنسان عند حدوث المكروهات .

٣- طغيان الإنسان عند النعم ، وأنه يطغى وينسى الشكر .

٤- المسلم الحقيقي يصبر عن الشدائد ، ويشكر عند النعم .

٥- فضل الصبر ، وأنه سبب لكل فضيلة .

٦- فضل العمل الصالح .

( فَالْعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) ) .

[ هود : ١٢ ] .

-----

( فَالْعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ... ) كان النبي ﷺ يشق عليه تكذيب قومه له ، وادعاء أنه ساحر

وكاهن وشاعر ، والقرآن سحر وكهانة ، فحرصه الله تعالى أن يبلغ ما أوحى إليه ، لأن ذلك وظيفته ، ولا يلتفت إلى شدة

إنكارهم وتكذيبهم .

● واحتلف في ( لعل ) على أوجه أظهرها ، أنه قصد بها النهي والزجر ، كما يقول للعبد : لعلك تفرط في الأمر الفلاني ،

والقصد من ذلك توبيخه وزجره عن التفريط .

والمعنى : إياك يا محمد أن تترك بعض ما يوحى إليك أو يضيق به صدرك .

فقوله ( تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ) مما يشق على الكفار سماعه ودعوتهم إليه .

( لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ) الكنز المراد به الذهب والفضة ، و ( لولا ) بمعنى : هلا ، للتحضيض والطلب بشدة .

والمعنى : أنهم يقولون : إذا كنت رسولاً من عند الله فلم لا نرى معك شيئاً من الغنى والكنوز ، وأنت مثلنا تأكل الطعام وتمشي في الأسواق .

كما قال تعالى ( وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ) .

( أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ) أي : ليأمر الناس باتباعه ويشهد له بالرسالة حتى نصدقه .

( إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ) أي : لم نرسلك لتأنيبهم بما يقترحون عليك من الآيات ، وليس ذلك من وظيفتك ، وإنما وظيفتك أن تنذرهم وتخوفهم عقوبة ربهم .

وقد بين تعالى أنه أنزل آية عظيمة يُستنكر أن يُطلب غيرها من المعجزات ، لأنها كافية لمريد الحق ، وهي كتابه العزيز .

قال تعالى ( أَوْ لِمَ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .

( وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ) فهو الوكيل عليهم ، يحفظ أعمالهم ، ويجازيهم بها أتم الجزاء .

فالوكيل : الحافظ الذي تسند إليه الأمور ليكفي غيره ، وهو من أسماء الله تعالى . ( رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ) .

#### الفوائد :

١- ذم من هذا عمله ، الجزع عند الشدائد ، والبطر عند النعم .

٢- وجوب الصبر عند الشدائد .

٣- وجوب الصبر عند النعم ، وذلك بالقيام بشكرها واستعمالها فيما يرضي الله تعالى .

٤- أن المؤمن الحق يصبر عند الشدائد ، ويشكر عند النعم .

٥- أن الشدائد تحتاج إلى صبر ، وكذلك النعم تحتاج إلى صبر .

الأحد: ٤/ ربهان/ ١٤٣٩هـ

( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَآنَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤) ) .

[ هود : ١٣ - ١٤ ] .

( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ) بل يقولون: إن هذا القرآن افتراه محمد من عند نفسه؟ فإنهم يعلمون أنه بشر مثلهم .

( قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ) أي : قل لهم: يا محمد على سبيل التبيكيت

والتحدي: إن كان الأمر كما زعمتم من أني أنا الذي اختلقت هذا القرآن، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب

بعشر سورة مفتريات كما زعمتم أن يفترى ، وقد أبحث لكم مع ذلك أن تدعوا لمعاونتكم ومساعدتكم في بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله تعالى .

( إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) أي : إن كنتم صادقين في زعمكم أني افتريت هذا القرآن، فهاتوا عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .

● والضمير في ( مِثْلِهِ ) يعود إلى القرآن الكريم، والمراد بمثله هنا: ما يشابهه في حسن النظم، وجمال الأسلوب، وسداد المعنى، وقوة التأثير .

وكلمة من في قوله ( مَنْ اسْتَطَعْتُمْ ) تشمل ألفتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعدة.

● وقد وقع التحدي بالقرآن على أوجه :

تحداهم أن يأتوا بقرآن يمثل هذا القرآن : ( في الطور ) .

قال تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ) ، وقال تعالى (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ) .

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله : ( في هود ) .

كما قال هنا ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) .

وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله . ( في البقرة ويونس ) .

في قوله تعالى ( وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )

وقال تعالى في سورة يونس ( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )

● وقوله ( وَاذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ) قيل : أعوانكم ونصراءكم ، وقيل : ألفتكم ، وقيل : اتوا بشهداء يشهدون لكم أن ما أتيتم به يعادل القرآن أو يقاربه .

وهذا غاية التحدي لهم . وهذا كما يقول المعجز المتحدي لمن عانده وتحداه : اذهب واث بمن تستطيع من أصحابك وأعوانك وأوليائك لتستعين بهم .

● قوله (فَأْتُوا) صيغة الأمر هنا للتعجيز .

● ( بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ ) أي : في الفصاحة والبلاغة وصدق الأخبار وعدل الأحكام .

● وجاءت كلمة ( سورة ) منكراً، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه.

● قال ابن كثير : ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى ، ... فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يحاذى ولا يدانى ، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر كما قال تعالى ( وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ) أي صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ... لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء .

● فلا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه ، كما قال تعالى ( لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ) أي معيناً .

( فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ) أي : فإن لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك

( فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ) أي : فأعلموا أيها الناس أن هذا القرآن أنزل بعلم الله وحده، وبقدرته وحدها ، ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه.

( وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ) واعلموا -أيضاً- أنه لا إله إلا هو سبحانه فهو الإله الحق، الذي تعنو له الوجوه ، وتخضع له القلوب، وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة.

( فَهَلْ أَنْتُمْ ) بعد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله، وعلى أن هذا القرآن من عنده .

( مُسْلِمُونَ ) أي : داخلون في الإسلام، متبعون لما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم.

● ويرى بعض العلماء أن الخطاب في هذه الآية موجه إلى النبي ﷺ والمسلمين، أو إليه وحده ﷺ وعلى سبيل التعظيم، وعليه

يكون المعنى : فإن لم يستجب لكم -أيها المؤمنون- هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتموهم به (فَاغْلُمُوا) أي فإزدادوا علماً و يقيناً وثباتاً، بأن هذا القرآن «إنما أنزل بعلم الله» الذي لا يعزب عنه شيء، وازدادوا علماً بأنه لا إله إلا هو سبحانه مستحق للعبادة والطاعة، فهل أنتم بعد كل ذلك (مُسْلِمُونَ) أي ثابتون على الإسلام، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه.

#### الفوائد :

- ١- إعجاز هذا القرآن .
  - ٢- عظمة القرآن حيث تحدى الله كفار قريش أن يأتوا بمثله .
  - ٣- وجوب العناية بالقرآن حفظاً وتدبراً وفهماً .
  - ٤- أن من أعظم آيات النبي ﷺ هذا القرآن العظيم .
  - ٥- لا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن .
- ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٦) ) .
- [ هود : ١٥ - ١٦ ] .

( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ) أي: من كان يريد بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية، بدون التفات إلى ما يقربه من ثواب الآخرة.

( نُوفِيَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ) أي: نوصل إليهم -بإرادتنا ومشيتنا- ثمار جهودهم وأعمالهم في هذه الدنيا.

( وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ) أي : وهم في هذه الدنيا لا ينقصون شيئاً من نتائج جهودهم وأعمالهم، حتى ولو كانت جهوداً لا إخلاص معها ولا إيمان.

( أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ) أي: أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها، ليس لهم في الآخرة إلا النار، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة في الدنيا وبقيت عليهم أوزار نياتهم السيئة في الآخرة.

( وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ) وفسد ما صنعوه في الدنيا من أعمال الخير، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله تعالى وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس .

والحبوط : الهلاك والاضمحلال .

( وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) أي : وباطل في نفسه ما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب في الآخرة لأن الأعمال بالنيات، ونيات هؤلاء المرائين، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله، وإنما كانت متجهة اتجاهها كلياً إلى الحياة الدنيا وزينتها، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق.

والباطل : الزائل المضمحل .

وهنا مباحث :

#### مبحث : ١

في الآية ذم من يريد بعمله الصالح الدنيا .

قال تعالى ( فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ) .

وفي الحديث ( تَعَسَّ عَبْدُ الدَّيْنَارِ وَالدَّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةَ وَالْحَمِيصَةَ إِنَّ أُعْطِيَ رِضِي وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ ) .

مبحث : ٢

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي هَذِهِ الآيَةِ :

فَقِيلَ : نَزَلَتْ فِي الكُفَّارِ وَاخْتَارَهُ النَّحَّاسُ .

لأن قوله تعالى ( أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) لا يليق إلا بالكفار .

وَقِيلَ : الآيَةُ وَارِدَةٌ فِي النَّاسِ عَلَى العُمومِ كَافِرِهِمْ وَمُسْلِمِيهِمْ . وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ حَظَّ الدُّنْيَا يُكَافَأُ بِذَلِكَ .

وقيل : نزلت في أهل الرياء .

وقيل : أن الآية نزلت في المنافقين الذين كانوا يطلبون بغزورهم مع الرسول عليه السلام الغنائم من دون أن يؤمنوا بالآخرة وثوابها .

وقيل : أن المراد : اليهود والنصارى ؛ وهو منقول عن أنس .

• قال ابن الجوزي : اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال :

أحدها : أنها عامة في جميع الخلق ، وهو قول الأكثرين .

مبحث : ٣

هذه الآية مقيدة بالآية الأخرى في سورة الإسراء .

قال تعالى ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ) .

قَالَ القُرْطُبِيُّ : ذَهَبَ أَكْثَرُ العُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ مُطْلَقَةٌ ، وَكَذَلِكَ الآيَةُ الَّتِي فِي الشُّورَى ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا )

فَيَدْتُّهَا وَفَسَّرْتَهَا الَّتِي فِي سُبْحَانَ : مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ .

مبحث : ٤

إشكال وجوابه :

قال الشنقيطي : هذه الآية الكريمة فيها التصريح بأن الكافر يُجَازَى بحسناته ؛ كالصدقة وصله الرحم وقرى الضيف والتنفيس عن

المكروب ، في الدنيا دون الآخرة ؛ لأنه تعالى قال : ( نُؤْتِ بِإِيْمَانِهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ) يعني الحياة الدنيا ، ثم نصَّ على بطلانها في

الآخرة بقوله : ( أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) الآية .

ونظير هذه الآية قوله تعالى ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ) .

وقد صحَّ عنه عليه السلام أن الكافر يُجَازَى بحسناته في الدنيا .

مع أنه جاءت آيات أخر تدلُّ على بطلان عمل الكافر واضمحلاله من أصله ، وفي بعضها التصريح ببطلانه في الدنيا مع

الآخرة في كفر الرِّدَّةِ وفي غيرها .

أما الآيات الدالة على بطلانه من أصله :

فكقوله ( أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ) .

وكقوله ( أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ) .

وقوله ( وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا ) .

وأما الآيات الدالة على بطلانه في الدنيا مع الآخرة :

فكقوله في كفر المرتد ( وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ) .

وكقوله في كفر غير المرتد ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ) إلى قوله ( أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ) .

#### والجواب من أربعة أوجه :

الأول والذي يظهر لي صوابه لدلالة ظاهر القرآن عليه : أن من الكفار من يشبهه الله بعمله في الدنيا ، كما دلَّت عليه آيات وصحَّ به الحديث ، ومنهم من لا يشبهه الله بعمله في الدنيا ، كما دلت عليه آيات وصحَّ به الحديث ، وهذا مُشاهد فيهم في الدنيا ، فمنهم من هو في عيش رغد ، ومنهم من هو في بؤس وضيق .

ووجه دلالة القرآن على هذا ، أنه تعالى أشار إليه بالتخصيص بالمشيئة في قوله ( مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ) فهي مخصصة لعموم قوله تعالى ( نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ) .

وعموم قوله تعالى ( وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا )

ويدل لهذا التخصيص قوله في بعض الكفار ( خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ) .

وجمهور العلماء من حمل العام على الخاص ، والمطلق على المقيد ، كما تقرر في الأصول .

الثاني : وهو وجه أيضاً: أن الكافر يُثاب عن عمله بالصحة وسعة الرزق والأولاد ونحو ذلك، كما صرح به تعالى في قوله ( نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ) يعني الدنيا ، وأكد ذلك بقوله ( وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ ) وبظواهرها المتبادر منها كما ذكرنا .

فسرها ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك كما نقله عنهم ابن جرير .

وعلى هذا : فبطلان أعمالهم في الدنيا بمعنى أنها لم يعتد بها شرعاً في عصمة دم ، ولا ميراث ولا نكاح ، ولا غير ذلك ، ولا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بدليل قوله ( إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ ) .

ولا تُدْخِر لهم الأعمال النافعة ، ولا تكون في كتاب الأبرار في عليين ، وكفى بهذا بطلاً .

أما مطلق النفع الدنيوي بها ، فهو عند الله لا شيء ، فلا يُثاب في بطلاتها ؛ بدليل قوله ( وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتًا ) .

وقوله ( وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ) .

وقوله ( وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ) إلى قوله ( للمتقين ) والآيات في مثل هذه كثيرة .

ومما يوضح هذا المعنى حديث : لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء .

#### الفوائد :

١- ذم من يطلب بعمله الصالح الدنيا .

٢- أن طلب الدنيا بعمل الآخرة يبطل ثوابها .

٣- خطر الرياء .

٤- خطر فتنة الدنيا .

٥- أن الله قد يجازي الكافر في الدنيا على حسناته ، وكذا طالب الدنيا ، فلا يبقى معه في الآخرة شيء من ثواب أعماله .

٦- أن الشرك يبطل الأعمال .

( أَمَّنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧) ) .  
[ هود : ١٧ ] .

( أَمَّنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ ) أي : أَمَّنَ كَانَ عَلَى نَورِ وَاضِحٍ ، وَبِرَهَانٍ سَاطِعٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَجَوَابُهُ مَحذُوفٌ أَي كَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا؟ يُرِيدُ أَنْ يَبِينَهُمَا تَفَاوُتًا كَبِيرًا ، وَتَبَايُنًا بَعِيدًا ، فَلَا يَسْتَوِي .

● قال ابن الجوزي : في المشار إليه ب "مَنْ" قولان :

أحدهما : أنه رسول الله ﷺ ، قاله ابن عباس والجمهور .

( وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ) أي : ويتبعه شاهد من الله بصدقه قال ابن عباس : هو جبريل عليه السلام .

● قال الواحدي : هو جبريل في قول أكثر المفسرين .

● قال البغوي في تفسير الآية : قوله تعالى ( أَمَّنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ ) بيان ( مِنْ رَبِّهِ ) قيل : في الآية حذف ، ومعناه : أَمَّنَ

كان على بيته من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها ، أو مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ .

والمراد بالذي هو على بيته من ربه : النبي ﷺ . ( وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ) أي : يتبعه من يشهد به بصدقه . واختلفوا في هذا الشاهد فقال ابن عباس ، وعلقمة ، وإبراهيم ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وأكثر أهل التفسير : إنه جبريل عليه السلام .

● وقال الشوكاني : بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ أَنَّ بَيِّنَ مَنْ كَانَ طَالِبًا لِلدُّنْيَا فَقَطُّ ، وَمَنْ كَانَ طَالِبًا لِلْآخِرَةِ ، تَفَاوُتًا عَظِيمًا ، وَتَبَايُنًا بَعِيدًا

المعنى : أَمَّنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ كَعَبْرَةِ مَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِمَنْ كَانَ

عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ : النَّبِيُّ ﷺ ، أَي : أَمَّنَ كَانَ مَعَهُ بَيِّنٌ مِنَ اللَّهِ وَمُعْجِزَةٌ كَالْقُرْآنِ وَمَعَهُ شَاهِدٌ كَجِبْرِيلَ ، وَقَدْ بَشَّرَتْ بِهِ

الْكَتُوبُ السَّالِفَةُ ، كَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . وَمَعْنَى الْبَيِّنَةِ : الْبُرْهَانُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْحَقِّ .

( وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى ) أي : ومن قبل هذا الشاهد التالي للبينة شاهر آخر ، وهو كتاب موسى ، والمراد به التوراة .

قال ابن الجوزي : قال الزجاج : والمعنى : وكان من قبل هذا كتاب موسى دليلاً على أمر النبي ﷺ ، فيكون "كتاب موسى"

عطفًا على قوله : ( ويتلوه شاهد منه ) أي : ويتلوه كتاب موسى ، لأن موسى وعيسى بشرًا بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل .

ونصب "إمامًا" على الحال .

فإن قيل : كيف تتلوه التوراة ، وهي قبله؟

قيل : لما بشرت به ، كانت كأنها تالية له ، لأنها تبعته بالتصديق له .

( إِمَامًا ) الإمام : هو الذي يؤتم به في الدين ويقتدى به .

● قال الخازن : يعني أنه كان إمامًا لهم يرجعون إليه في أمور الدين والأحكام والشرائع .

( وَرَحْمَةً ) الرَّحْمَةُ : النِّعْمَةُ الْعَظِيمَةُ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى مَنْ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ بَعَدَهُمْ بِاعْتِبَارِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ

الشَّرْعِيَّةِ الْمُؤَافِقَةِ لِحُكْمِ الْقُرْآنِ .

● قال الخازن : وكونه رحمة لأنه الهادي من الضلال وذلك سبب حصول الرحمة .

( أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ) أي : أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدقون بالقرآن حق التصديق .

( وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ) أي : بالقرآن ، أو بالنبي ﷺ .

( مِنَ الْأَحْزَابِ ) المراد كل حزب ، سواء كان من النصارى ، أو من اليهود ، أو من المجوس ، أو من غيرهم .

( فَالْتَارُ مَوْعِدُهُ ) أي : ومن يكفر بالقرآن ، من أهل الملل والأديان ، فله نار جهنم يدخلها لا محالة .

وفي هذا دليل على عموم رسالة النبي ﷺ ، وقد كثرت النصوص في أن دعوة ورسالة النبي ﷺ عامة لجميع الناس .  
قال تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ) .

وقال تعالى ( قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ) .

وقال تعالى ( وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ) أي : وأُنذِر مَنْ بَلَغَهُ .

وقال تعالى ( وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ) .

وقال تعالى ( تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ) .

وقال ﷺ ( أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، ... ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ) متفق عليه .

وقال ﷺ ( وأرسلت إلى الخلق كافة ) رواه مسلم .

وفي رواية ( وبعثت إلى كل أحر وأسود ) .

قيل : المراد بالأحر العجم ، والأسود العرب ، وقيل : الأحمر الإنس ، والأسود الجن

وقال ﷺ ( لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ ) رواه مسلم .

( فَلَا تَكُ فِي مَرْيَةٍ مِنْهُ ) المرية : الشك ، أي : لاتكن في شك .

والنبي ﷺ لا يشك ، ولكنه قد يؤمر وينهى تشريعاً لغيره .

● قال الشوكاني : وفيه تعريضٌ بغيره ﷺ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ عَنِ الشَّكِّ فِي الْقُرْآنِ .

( إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ) أي : هذا القرآن هو الحق ، الثابت الذي لا يزول ولا يضمحل ، والمراد أنه مطابق للواقع لا كذب فيه .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ( هذه الآية تدل على أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين ، فأهل النار هم الأكثر ، كما جاء في آيات كثيرة وأحاديث .

كما قال تعالى ( وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ) .

وقال تعالى ( وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ) .

وقال تعالى ( وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ) .

وقال تعالى ( وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ) .

وقال تعالى في شأن نوح ( وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ) .

وقال ﷺ ( إنما أنتم في الأمم كالشعرة السوداء في جلد الثور الأبيض ) متفق عليه .

وقال ﷺ ( يأتي يوم القيامة النبي وليس معه أحد ) .

#### الفوائد :

١- لا يستوي من كان على بينة من ربه ومن ليس كذلك .

٢- الحرص على طلب العلم الشرعي ليكون الإنسان على بينة من ربه .

٣- الأدلة كثيرة ومتنوعة على إثبات رسالة النبي وأنه على نور من ربه .

٤- إثبات نبوة موسى وكتابه التوراة .

٥- أن الكتب المتقدمة تثبت نبوة النبي ﷺ .

٦- وجوب الإيمان بالقرآن .

٧- أن من كفر بالقرآن فهو كافر بالنار .

٨- أن القرآن لا شك فيه ولا مرية .

( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ (٢٢) ) .  
[ هود : ١٨ - ٢٢ ] .

( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ) أي : لا أحد أشد ظلماً ممن تعمد الكذب على الله تعالى بأن زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده، أو زعم بأن الملائكة بنات الله، أو أن هذا القرآن ليس من عنده سبحانه .  
( أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ) أي : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله تعالى يعرضون يوم الحساب، على ربهم ومالك أمرهم، كما يعرض المجرم للقصاص منه، ولفضيحته أمام الناس .

• قال الزجاج : ذكر عرضهم توكيداً لحالهم في الانتقام منهم ، وإن كان غيرهم يعرض أيضاً .  
• قال الرازي : قوله تعالى ( أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ) وما وصفهم بذلك لأنهم محتصون بذلك العرض ، لأن العرض عام في كل العباد كما قال : ( وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ) وإنما أراد به أنهم يعرضون فيفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم ( هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ) فحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه .  
( وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ) الأشهاد: جمع شهيد كشريف وأشراف. أو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم- على الراجح- جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم، ومن الأنبياء والمؤمنين .  
قيل : هم الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم عليهم في الدنيا .  
وقيل : الناس كما يقال على رؤوس الأشهاد ، يعني على رؤوس الناس .  
وقيل : هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

قال الله تعالى ( فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ) والفائدة في اعتبار قول الأشهاد المبالغة في إظهار الفضيحة .

• قال ابن الأنباري : وفائدة إخبار الأشهاد بما يعلمه الله : تعظيم بالأمر المشهود عليه ، ودفع المجاهدة فيه .  
( هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ) أي : هؤلاء الذين افتروا الكذب على الله هَؤُلَاءِ المجرمون هم الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ بأن نسبوا إليه ما هو منزله عنه ، بادعاء الولد ، والشركاء تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

• قال أبو حيان : وفي قوله : هَؤُلَاءِ إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم .  
وفي قوله (على ربهم) أي : على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم ، وكانوا جديريين أن لا يكذبوا عليه ، وهذا كما تقول إذا رأيت مجرمًا : هذا الذي فعل كذا وكذا .

( أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ) الذين وضعوا الأمور في غير مواضعها، فأوردوا أنفسهم المهالك .

و ( ألا ) حرف تنبيه ، ومن فوائدها إحضار ذهن السامع لما بعدها .

والظالمون : الذين يضعون الأشياء في غير موضعها ، والذي يعبد غير الله يضع العبادة في غير موضعها .

( الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ) الذين من صفتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق بل يحاولون صرف غيرهم عنه ويطلبون ملّة الإسلام العوج ويصفونها بذلك تنفيراً للناس منها .

يَصُدُّونَ من صد بمعنى صرف الغير عن الشيء ومنعه منه . يقال صد يصد صدودا وصددا .

وسبيل الله طريقه الموصلة إلى رضائه . والمراد بها ملّة الإسلام .

وأضيفت إلى الله لأنه هو الذي شرعها ووعد سالكيها بالثواب .

( وَيَبْغُوْنَهَا عِوَجًا ) أي يطلبون لها العوج، يقال: بغيت لفلان كذا إذا طلبته له .

والعوج - بكسر العين - الميل والزيغ في الدين والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج .

( وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ) أي: جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها .

( أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ) أي : أولئك الذين افتروا على الله الكذب لم يكن سبحانه عاجزاً عن إنزال العذاب الشديد بهم في الدنيا .

أي ليسوا مفلتين من عذاب الله وإن أمهلهم ، كما يحدث لبعض الناس في عصيان الملوك ، ثم الفرار منهم ، فلا يستطيع الملوك القبض عليهم ، بخلاف رب العالمين ، فلا يفوته شيء . كما قال تعالى ( وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوْا أَنَّكُمْ عِنْدَ مُعْجِزِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) .

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ) يمنعونهم من عقابه .

والولي : كل من انعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويجعله يواليك ، والمراد : ليس لهم أولياء يدفعون عنهم عذاب الله ويمنعونهم من ذلك .

● قال ابن كثير : أي: بل كانوا تحت قهره وغلبته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ( يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ) وفي الصحيحين: "إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته . ( يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ) أي : يضاعف لهم ضعفاً مكان إضلالهم وصددهم غيرهم ، وضعفاً مكان ابتغائهم اعوجاج الطريق . كما قال تعالى ( وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ) .

وقال ﷺ ( من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ) .

( مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ) أي أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذي جاءهم من ربه لثقله على نفوسهم الفاسدة، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبيهم ﷺ .

● قال الشنقيطي : في هذه الآية الكريمة للعلماء أوجه ، بعضها يشهد له القرآن :

الأول - وهو اختيار ابن جرير الطبري في تفسيره ، ونقله عن ابن عباس وقتادة - : أن معنى ( مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ) أنهم لا يستطيعون أن يسمعوا لحق سماع متنفذ ، ولا أن يبصروه إبصار مهتد ، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين عن استعمال جوارحهم في طاعة الله تعالى : وقد كانت لهم أسماع وأبصار .

ويدل لهذا قوله تعالى ( وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ) .

الثاني - وهو أظهرها عندي - : أن عدم الاستطاعة المذكورة في الآية إنما هو للختم الذي ختم الله على قلوبهم وأسماعهم ، والغشاوة التي جعل على أبصارهم .

ويشهد لهذا القول قوله تعالى ( خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ) .

وقوله ( إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ) ونحو ذلك من الآيات.

وذو الختم والأكنة على القلوب جزاء من الله تعالى لهم على مبادرتهم إلى الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيتهم كما دلت عليه آيات كثيرة .

كقوله ( بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ) وقوله ( فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ) وقوله ( فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ) .

وقوله ( وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ) الآية وقوله ( وَتَقَلَّبَ أَقْبِدَتْهُمُ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةً ) إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث : أن المعنى ما كانوا يستطيعون السمع اي لشدة كراهيتهم لكلام الرسل على عادة الرسل على عادة العرب في قولهم : لا استطيع أن اسمع كذا إذا كان شديد الكراهية والبغض له .

ويشهد لهذا القول قوله تعالى ( وَإِذَا تَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ) .

وقوله تعالى ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ) .

وقوله ( وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ) .

( أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ) ودلت آيات أخر أنهم خسروا ايضاً أهلهم ( قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) .

خسارة عظيمة : حتى أمنية الكافر يوم القيامة الموت ( ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ) .

( وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ) أي : وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الألهة .

( لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ) أي : لا محالة ولا شك في أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

وأصل الخسران في لغة العرب: هو نقصان مال التاجر، سواء كان نقصاً في ربح المال، أو نقصاً في رأس المال.

والخسران في اصطلاح الشرع: هو غبن الإنسان في حظوظه من ربه (جل وعلا)؛ لأن الإنسان إذا غبن في حظوظه من ربه (جل وعلا) فقد خسر الخسران المبين.

وقد أقسم الله (جل وعلا) - وهو أصدق من يقول - في سورة كريمة من كتابه - وكل سورة منه كريمة- ألا وهي (سورة العصر)

أن الخسران لا ينجو منه إنسان كائناً ما كان إلا بأعمال معينة مبينة، وذلك في قوله (وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفِي خُسْرٍ) (إِنَّ

الْإِنْسَانَ) معناه: إن كل إنسان كائناً من كان (لَقَفِي خُسْرٍ) (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

فهذا الخسران لا يُنجي منه شيء أبداً كما أقسم عليه رب السماوات والأرض إلا الإيمان والأعمال الصالحات، والتواصي بالحق،

والتواصي بالصبر، هذا الذي يُنجي من الخسران.

وأكبر الأدلة على خسرانهم أنفسهم: أنهم إن صاروا إلى النار أكبر مُنيّة يتمنونها، وأكبر غرض يطلبونه: هو أن يموتوا وتعدم

أنفسهم فتصير لا شيء؛ ولذلك يقولون (وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ).

ولكن أمّنتهم العُظمى التي هي الموت لا يحصلونها أبداً؛ لأن الله يقول (لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا

كَذَلِكَ نُجْزِي كُلَّ كَافِرٍ) ويقول (جل وعلا) في الكافر (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا

وَلَا يَحْيَى).

● قال ابن عاشور : عبر عما لحقهم من الضر بالخسارة استعارة لأنه ضر أصابهم من حيث كانوا يرجون المنفعة فهم مثل

التجار الذين أصابتهم الخسارة من حيث أرادوا الربح.

وإنما كانوا أحسرين ، أي شديدي الخسارة لأنهم قد اجتمع لهم من أسباب الشقاء والعذاب ما افترق بين الأمم الضالة. ولأنهم شقوا من حيث كانوا يحسبونه سعادة قال تعالى ( قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ) فكانوا أحسرين لأنهم اجتمعت لهم خسارة الدنيا والآخرة.

**الفوائد :**

١- أن الافتراء على الله تعالى أعظم أنواع الظلم.

٢- أن من عقوبة الافتراء على الله كذباً الفضيحة والتشهير به يوم القيامة .

٣- إثبات العرض على الله .

٤- أن الله لا يظلم أحداً لكمال عدله .

٥- إثبات شهادة الشهود يوم القيامة .

٦- إثبات لعنة الله على المشركين الظالمين .

٧- أنه لا أحد يستطيع أن يهرب أو أن يفلت من الله .

٨- أن من افترى على الله كذباً خسروا في الدنيا والآخرة .

٩- إثبات الآخرة .

( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ) .

[ هود : ٢٣ - ٢٤ ] .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السُّعَدَاءِ .

**قال الرازي:** اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجانبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ) بقلوبهم .

( وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ) بجوارحهم من واجبات ومستحبات .

● والإيمان إذا أفرد ولم يذكر معه (وعملوا الصالحات) فإنه يشمل جميع خصال الدين من اعتقادات وعمليات، وأما إذا عُظِف العمل الصالح على الإيمان كقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فإن الإيمان حينئذ ينصرف إلى ركنه الأكبر الأعظم وهو الاعتقاد القلبي، وهو إيمان القلب واعتقاده وانقياده بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وبكل ما يجب الإيمان به.

● والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصاً لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعاً للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

- قال السعدي: ووصفت أعمال الخير بالصلحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه وديناه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته. (وَأَحْبَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ) قيل : خشعوا ، وقيل : أنابوا .

قال ابن جرير : الخشوع والتواضع .

- قال الآلوسي : وأحببتوا إلى ربهم : اطمأنوا إليه وخشعوا له .

- قال السعدي : قوله تعالى ( وَأَحْبَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ ) أي: خضعوا له، واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأنابوا إليه بمحبته، وخوفه، ورجائه، والتضرع إليه.

و" الْحَبْتُ " فِي أَصْلِ اللَّعَةِ: الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ.

قال ابن القيم : وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ تَدْوُرُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: التَّوَاضُّعِ، وَالسُّكُونِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُخْبِتِينَ بِالْجَنَّةِ .

كما في هذه الآية .

وبشرهم الله تعالى .

فقال تعالى ( وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُتَّقِينَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ) .

والإخبات عمل قلبي يبدو على الجوارح فينتظم حركتها وسكاتها .

قال تعالى ( وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ) .

- قال ابن القيم : اعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكّن فيها ارتفعت همته، وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم. فلا يفرح بمدح الناس. ولا يحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظ نفسه، وتأهل للفناء في عبودية ربه. وصار قلبه مطرّحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات. وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه. والوقوف عند مدح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب، وخلوه من الله، وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته، ولم يدق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه. (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) الإشارة إلى الذين تقدمت صفاتهم .

والصحبة تطلق على كل شيئين وقعت بينهما ملازمة طويلة .

وإنما سماها أصحاب الجنة لأنهم ملازموها .

والجنة : في اللغة البستان ، والمراد بها هنا دار الكرامة التي أعدها الله لعباده المؤمنين .

( هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) أي : ماكنون ، والمراد بالخلود هنا الديمومة والبقاء الأبدي الذي لا انقطاع فيه .

كما قال تعالى ( عطاء غير مجدود ) وقال تعالى ( إن هذا لرزقنا ماله من نفاق ) .

وقال ﷺ (من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه) رواه مسلم.

وقال ﷺ (يناد مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تياسوا أبداً) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ... ) متفق عليه .

وهذا من أعظم تمام النعيم، أن أهل الجنة خالدون فيها أبد الأبدين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائد، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غمًا.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثر من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتكدر غبطتهم.

( مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ) أي: فريق الأَشقياء ، وفريق السعداء .

( كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ) ( كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى ) هؤلاء الأَشقياء ، ( وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ) مثل السعداء .

ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للكافر بالأعمى والأصم ، وضرب المثل للمؤمن بالسميع والبصير ، وبين أنهما لا يستويان ، ولا يستوي الأعمى والبصير ، ولا يستوي الأصم والسميع .

● قال الخازن : ... كالأعمى وهو الذي لا يهتدي لرشده والأصم وهو الذي لا يسمع شيئاً البتة ، والبصير وهو الذي يبصر الأشياء على ماهيتها ، والسميع وهو الذي يسمع الأصوات ويجيب الداعي فمثل المؤمنين كمثل الذي يسمع ويبصر وهو الكامل في نفسه ومثل الكافر كمثل الذي لا يسمع ولا يبصر وهو الناقص في نفسه .

● وقال الشوكاني : ضرب للفريقين مثلاً وهو تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، على أن كل فريق شبه بشيئين ، أو شبه بمن جمع بين الشيئين ، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والأصم ، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر .

فالكافر : عمي البصائر ، لا يرون الحق حقاً ، ولا الباطل باطلاً ، صم الأذان : لا يسمعون الكلام الحسن الذي ينفعهم .

● قال ابن كثير : فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به ( وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ) .

وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ : وهذا مثل للفريق المؤمن : فهم يرون ببصائرهم ويعقلون ويسمعون ما ينفع فيأخذون به ، وما يضر فيجتنبونه قال ابن كثير : وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب ، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يترجح عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا.

● وقد جرت العادة أن الله تعالى يضرب الأمثال في القرآن للمعقولات بالمحسوسات ، حتى تصير المعقولات كالمحسوسات . ولكن الله أخبر سبحانه أنه لا ينتفع بالأمثال إلا أهل البصائر .

فقال تعالى ( وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ) .

بل أخبر تعالى أن تلك الأمثال لا تزيد الكافر إلا ضلالاً .

كما قال تعالى ( إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ) .

والحقيقة أن البصر الحقيقي هو صلاح البصيرة، ولا يضر عمى البصر مع نور البصيرة، قال تعالى (فَأَن تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

( هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ) أي : الفريقان السابقان، هل تستوي صفاتهم وما يترتب عليها في الدنيا والآخرة ؟ لا شك أن صفتهم لا تستوي ، وهم لا يستويون .

قال تعالى ( أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) .

كما قال في الآية الأخرى ( لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ) .

وقال ( وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ) .  
 وقوله ( أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْنَاكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ) .  
 ( أَفَلَا تَدَّكَّرُونَ ) أفلا تعجبون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء .

والتذكر : الاتعاظ .

#### الفوائد :

- ١- وجوب الإيمان بالله وبما يجب به من الإيمان به .
- ٢- أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنان .
- قال تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).
- وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا).
- وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْتَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).
- ٣- فضل الإخبات لله والخضوع والتواضع .
- ٤- أن الجنة تنال بالعمل والإيمان .
- ٥- أعظم نعيم الجنة هو الخلود .
- ٦- إن من عيوب الدنيا الموت والرحيل عنها (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) فلا خلود في الدنيا.

الأربعاء / ٧: رمضان / ١٤٣٩م

( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِرَأْيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) )  
 [ هود : ٢٥ - ٢٧ ] .

- ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام .
- قال ابن كثير : وكان قوم نوح يعبدون الأصنام: فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.
  - بدأ تعالى بقصص الأنبياء في السورة تسليية للنبي ﷺ وبيان أن الشدة التي لاقاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله كما قال تعالى (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل) وفيها أيضاً تهديداً للمشركين.
  - وبدأ بنوح لأنه أول رسول أرسل إلى أهل الأرض حينما انتشر الشرك بينهم، ويسمى نوح (آدم الأصغر) لأن البشرية كلها بعده من ذريته كما قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَجَعَلْنَاهُ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ).

- ونوح هو أحد أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم في موضعين في كتابه:

الموضع الأول / في سورة الأحزاب.

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا).

الموضع الثاني / في سورة الشورى.

قال تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ).

ونوح أول الرسل.

لقوله (فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح! أنت أول الرسل إلى الأرض).

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).

• قال ابن كثير: وقد كان بين آدم إلى زمن نوح، عليهما السلام، عشرة قرون، كلهم على الإسلام. قاله ابن عباس.

قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صور أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجسادًا على تلك الصور. فلما تبادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين (ودًا وسواعًا وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ ونسراً) فلما تفاقم الأمر بعث الله، سبحانه وتعالى -وله الحمد والمنة -رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

(إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي: ظاهر التذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله .

والإنذار : الإعلام المقرون بتخويف .

• ذكر الإنذار هنا دون البشارة مع أن الرسل جاءوا بالندارة والبشارة :

قيل : من باب الاكتفاء .

كقوله تعالى ( سراييل تقيكم الحر ) أي : والبرد .

وعلى أحد الأقوال في قوله تعالى ( فذكر إن نفعت الذكرى ) أي : وإن لم تنفع .

ويحتمل أنه ذكر النذارة لأنهم كانوا في غاية المكابرة والإعراض ، فهو ينذرهم ، كما قال ﷺ ( أنا النذير العريان ) .

واقصر على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله -تعالى- إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة .

• قال الرازي : قال بعضهم : المراد من النذير كونه مهدياً للعصاة بالعقاب ، ومن المبين كونه مبيناً ما أعد الله للمطيعين من

الثواب ، والأولى أن يكون المعنى أنه نذير للعصاة من العقاب وأنه مبين بمعنى أنه بين ذلك الإنذار على الطريق الأكمل

والبيان الأقوى الأظهر .

( أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ) وهذه دعوة جميع الرسل .

• وفي هذه الآية وجوب عبادة الله عز وجل، وأنها دعوة الرسل جميعاً، وأول ما يبدا به.

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

وقال ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْثَمَ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ، .. وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ).

(الأنبياء أولاد علات) أولاد العلات: هم الأخوة للأب من أمهات شتى.

معنى الحديث: أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف.

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ) أي : إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار

الآخرة.

وهي جملة تعليلية، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم.

أي : إني أحذركم من عبادة غير الله، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم الى وقوع العذاب الأليم عليكم، وما حملني على هذا التحذير الواضح إلا خوفاً عليكم، وشفقتي بكم، فأنا منكم وأنتم منى بمقتضى القرابة والنسب.

( فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ) أي: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم.

● قيل سُمُّوا (ملاً) لأنهم يملؤون صدورَ المجالسِ بقامتِهِم الوافية، أو يملؤون صدورَ الناظرِ لأبْهَتِهِمْ وَجْهَاهِم، أو أنهم يَتَمَالؤُونَ على العقدِ والحلِّ فيتفقونَ عليه.

( مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ) أي: لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا ؟

أي : ما نراك يا نوح إلا بشراً مثلنا، أي: إلا إنساناً مثلنا، ليست فيك مزية تجعلك مختصاً بالنبوة دوننا .  
فهم- لجهلهم وغبائهم- توهّموا أن النبوة لا تجامع البشرية، مع أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسول بشراً من جنس المرسل إليهم، حتى تتم فائدة التفاهم معه، والافتداء به في أخلاقه وسلوكه .

● قال الشنقيطي : زعموا أن البشرية مانعة من الرسالة ، وهي أكثر ما ابتلاهم به ، وأكبر الموانع من إيمانهم بالرسول .

فقال تعالى ( وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ).  
وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمْ ( فَقَالُوا أَنْتُمْ لَيْسْتُمْ مِثْلَنَا ).

وَقَوْلُهُ ( فَقَالُوا أَبَشَّرْنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ ).

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ ( قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ).

وقال تعالى ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نُنَبِّئُكَ ).

وقال تعالى ( وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ).

وشبّهَهُمْ هَذِهِ الْبَاطِلَةُ رَدَّهَا اللَّهُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ( وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا جَعَلْنَاهُ رَجُلًا ).

وَقَوْلِهِ ( وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا ) أي: لا مَلَأِيكَةً.

● قال القرطبي: لو جعل الله الرسول إلى البشر ملكاً لفروا من مقارنته وما أنسوا به ، ولدخلهم من الرعب والافتقار له ما

يكفهم من كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لقالوا: لست ملكاً وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم.

● والبشر الإنسان ، سمي بشراً لأن بشرته بادية لا يسترها شعر ولا وبر .

هذه الشبهة الأولى للكفار : كون الرسل بشراً .

( وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ ) هذه الشبهة الثانية .

أي : ثم ما نراك اتبعك إلا أرادنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أحابوك فاتبعوك .

كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء ( قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ ) .

● والأرادل جمع أرذل ، والرذالة التفاهة والدناءة وسقوط القيمة .

● قال الرازي : هذا جهل منهم، لأن الرفعة في الدين لا تكون بالحسب والمال والمناصب العالية، بل الفقر أهون على الدين

من الغنى، بل نقول: الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف تجعل قلة المال في الدنيا طعناً في النبوة

● وقد أجرى الله العادة في عبادته أن أول المسارعين لطاعة رسله هم الفقراء والضعفاء، وهم أكثر أهل الجنة، وأن أول ما يبادر إلى التكذيب هم الأشراف والرؤساء، لأنهم يحبون الرئاسة والشرف، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين، وهم أكثر أهل النار . قال تعالى ( وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ) . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم ( بَادِيَ الرَّأْيِ ) ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال، بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء ودكاء ولا يفكر وينزوي هاهنا إلا عيبي أو غبي . والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاءوا بأمر جلي واضح.

( وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ) يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا .

الفضل: الزيادة في الشرف والغنى وغيرها مما يتميز به الإنسان عن غيره.

والمراد هنا: آثاره التي تدل عليه.

أي : أنت يا نوح لست إلا بشرا مثلنا، وأتباعك هم أحقرنا شأنًا، وما نرى لك ولتبعيك شيئاً من الزيادة علينا لا في العقل ولا في غيره، بل إننا لنعقد أنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق، لأن الحق في نظرنا هو في عبادة هذه الأصنام التي عبدها من قبلنا آبائنا.

( بَلْ نَطَّئُكُمْ كَاذِبِينَ ) أي : مخبرين بخلاف الواقع .

والكذب : الإخبار بخلاف الواقع .

#### الفوائد :

١- إثبات رسالة نوح .

٢- عظمة الله لقوله ( ولقد أرسلنا ) فالجمع للتعظيم .

٣- أن كل نبي يرسل إلى قومه خاصة إلا نبينا ﷺ فإنه أرسل لجميع الناس .

٤- أن مهمة الرسل التبشير والإنذار .

٥- وجوب عبادة الله تعالى .

٦- أن دعوة جميع الرسل هو عبادة الله وحده وترك الشرك .

٧- عظم المال والرئاسة ، حيث إنها من أسباب رد الحق .

٨- أن أهل الترف دائماً يعادون الرسل .

٩- من عادة الترف احتقار الضعفاء .

١٠- أن أتباع الرسل هم ضعفاء الناس .

( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمُ نَارًا مِّن لَّهَبٍ فَلاَ تَكْفُرُونَ (٢٨) )  
 وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ  
 (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (٣٠) ) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خِزْيٌ إِلاَّ نَارٌ مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةٌ  
 أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)).  
 . [ ٣١ - ٢٨ ]

( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ) أي: على يقين وأمر جلي .

( وَآتَانِي رَحْمَةً مِّن عِنْدِهِ ) أي : ومنحني بفضلِهِ وإحسانه النبوة التي هي طريق الرحمة لمن آمن بها، واتبع من اختاره الله لها. فالمراد بالرحمة هنا النبوة .

( فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمُ ) أي: خفيت عليكم، فلم تهندوا إليها، ولا عرفتم قدرها، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها .  
 ( أَنزَلْنَاهُمْ نَارًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطَةً ) الاستفهام للإنكار والنفي .

أي: إذا كانت الهداية إلى الخير التي جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلالها ، فهل أستطيع أنا وأتباعي أن نجبركم إجباراً ، ونفسركم قسراً على الإيمان بي، وعلى التصديق بنبوتي، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها.  
 كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار.

( وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ) يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالا أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل .

لأن طلي هذا قد يجعلكم تتوهمون أي محب للمال .

( إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى اللَّهِ ) وحده، فهو الذي يثبني على دعوتي إلى عبادتكم له، وفي هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله تعالى مالا ، وإنما يسأله ثواباً ، إذ ثواب الله يسمى أجراً، لأنه جزاء على العمل الصالح.

( وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ) كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم .

كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) وقال تعالى (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) .

( إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ ) أي: لن أطردهم عن مجلسي أبداً ، لأنهم قد آمنوا بي، ولأن مصيرهم إلى الله تعالى، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم، أما أنا فأكتفي منهم بظواهرهم التي تدل على صدق إيمانهم، وشدة إخلاصهم.

( وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ) أي : ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فتطلبون طردهم، وتظنون أنكم خير منهم .

● وفي هذا أنه على الداعية أن يكون مخلصاً ناصحاً في دعوته لكي ينتفع الناس بدعوته.

ومن النصح ألا يأخذ على دعوته وتعليمه مالا أو عوضاً.

وهذا هو شأنُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ.

قال تعالى عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى اللَّهِ).

وَقَوْلِهِ فِيهِ أَيضًا فِي آخِرِ «سُورَةِ ص» (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ).

وَقَوْلِهِ فِي «الطُّورِ»، وَ «الْقَلَمِ» (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مَّثَقِلُونَ).



وأبلغكم ما أرسلت به إليكم ، ومنحني ربي النبوة .

قال تعالى ( قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ بَمُنَّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ) .

وقال تعالى ( قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ) .

وقال تعالى ( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ) .

وقال تعالى ( قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ) .

( وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ ) أي : إني لا أقول لهؤلاء المتبعين لي المؤمنين بالله الذين تعيبتهم وتحتقروهم .

( لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ) بل قد آتاهم الخير العظيم بالإيمان به واتباع نبيه ؛ فهو مجازيهم بالجزاء العظيم في الآخرة ، ورافعهم في الدنيا إلى أعلى محل ، ولا يضرهم احتقاركم لهم شيئاً .

( اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ) من الإيمان به ، والإخلاص له ، فمجازيهم على ذلك ، ليس لي ولا لكم من أمرهم شيء .

( إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ) أي : إن طردتهم ، أو احتقرتهم ، أو ادعيت أنني أعلم الغيب .

الفوائد :

١- حرص نوح على هداية قومه .

٢- أن الأنبياء وغيرهم من باب أولى ليس بيدهم هداية أحد .

٣- أن الأنبياء لا يأخذون على دعوتهم أجراً إلا من الله .

٤- وجوب الإخلاص في الدعوة إلى الله .

٥- أن أخذ الداعية أجراً على دعوته يؤدي إلى قلة نفعها .

٦- أن أكثر أتباع الأنبياء الفقراء .

٧- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب .

٨- أن النبي بشر كغيره إلا أن الله اصطفاه بالوحي .

( قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا

أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

(٣٤) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ (٣٥) ) .

[ هود : ٣٢ - ٣٥ ] .

( قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ) أي: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك .

والجدال: هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة

• قال ابن الجوزي : قال الزجاج : الجدال : هو المبالغة في الخصومة والمناظرة ، وهو مأخوذ من الجدل ، وهو شدة الفتل ،

ويقال للصقر : أجدل ، لأنه من أشد الطير .

• قال القرطبي : والجدل في الدين محمود ؛ ولهذا جادل نوح والأنبياء قومهم حتى يظهر الحق ، فمن قبله أنجح وأفلح ، ومن

ردّه خاب وخسر .

وأما الجدال لغير الحق حتى يظهر الباطل في صورة الحق فمذموم ، وصاحبه في الدارين ملوم.

● قال أبو حيان : وإنما كثرت مجادلتهم له لأنه أقام فيهم ما أخبر الله به ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهو كل وقت يدعوههم إلى الله وهم يجيبونه بعبادتهم أصنامهم.

● بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه:

أولاً: اتهموه بالجنون.

قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ).

ثانياً: اتهموه بكثرة الجدال.

قال تعالى عنهم (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ).

ثالثاً: اتهموه بالضلال.

قال تعالى (قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين).

رابعاً: توعده بالرحم.

قال تعالى عنهم (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ).

خامساً: التهمك والسخرية.

قال تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

( فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ) أي: من النعمة والعذاب .

( إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ) في كلامك وتهديدك .

( قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ) يعني قال نوح لقومه حين استعجلوه بإنزال العذاب إن ذلك ليس إليّ إنما هو إلى الله ينزله متى

شاء وعلى من يشاء إن أراد إنزال العذاب بكم .

( وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) يعني وما أنتم بفائتين إن أراد الله نزول العذاب بكم .

( وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ) أي: أي شيء يُجدي عليكم إبلاغي لكم

وإنذاري إياكم ونصحي، إن كان الله يريد إغواءكم ودماركم .

● والنصح : قيام الناصح بما يجب عليه .

وفي هذا فضل النصيحة

والنصيحة شرعاً :

قيل : هي كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمنصوح له .

وقيل : قيام العبد بما لغيره من الحقوق ، وهذا أصوب .

ولها فضائل :

أولاً: أنها مهمة الرسل.

قال تعالى إخباراً عن نوح (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم).

ثانياً: أن منزلتها عظيمة.

كما في حديث (الدين النصيحة).

ثالثاً: أنها من علامات كمال الإيمان.

كما قال ﷺ ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

رابعاً: أنها من حقوق المسلم على أخيه المسلم.

قال ﷺ (للمؤمن على المؤمن ست خصال: ... وينصح له إذا غاب أو شهد).

سئل ابن المبارك: أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله.

وقال الفضيل: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير.

وقال أيضاً: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

قال أبو بكر المزني: ما فاق أبو بكر أصحاب رسول الله بصوم ولا بصلاة، ولكن بشيء كان في قلبه، قال ابن

علية: الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة في خلقه "

وقال أبو الدرداء: إن شئتم لأنصحن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحبون الله تعالى إلى عبادته ويعملون في الأرض

نصحاً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قالت له فاطمة بنت قيس: قد خطبني أبو جهم ومعاوية، فقال

لها: أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، وبين النبي ﷺ حال الخاطبين للمرأة، فإن النصح في

الدين أعظم من النصح في الدنيا، فإذا كان النبي ﷺ نصح المرأة في دنياها فالنصيحة في الدين أعظم.

**وللنصيحة آداباً:**

**أولاً:** الإخلاص لله عز وجل.

فلا بد أن يقصد بنصحه وجه الله تبارك وتعالى كما في حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).

**ثانياً:** ألا يقصد التشهير.

**ثالثاً:** أن يكون النصح سراً.

قال الشافعي: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً.

قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه.

**قال الشاعر:**

تغمدي بنصحك في انفرادي وجنبي النصيحة في الجماعة

فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه

**رابعاً:** أن يكون النصح بلطف وأدب ورفق ولا يثقل على الناصح ولا يكثر عليه.

كما جاء في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه).

(هُوَ رِيكُم) أي: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف العادل الذي لا يجور، له الخلق وله الأمر.

والرب هو المالك المتصرف المعبود المدبر لشؤون خلقه المرئي لهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

ومعاني الرب في لسان العرب ترجع إلى ثلاثة أصول: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه.

● **قال الحازن:** يعني أنه سبحانه وتعالى هو يملككم فلا تقدرون على الخروج من سلطانه.

(وَالِيهِ تُرْجَعُونَ) أي: وهو المبدئ المعيد، مالك الدنيا والآخرة.

( أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ) أي : اختلقه وافتعله من عند نفسه .

• قال الحازن : أي اختلقه وجاء به من عند نفسه والضمير يعود إلى الوحي الذي جاءهم به .

قيل : هذه الآية في محمد ﷺ وقومه .

وقيل : هي في نوح .

وهذا الصواب .

• قال القرطبي : وقيل : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر .

لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه ؛ فالخطاب منهم ولهم .

• قال الحازن : وأكثر المفسرين على أن هذا من محاورة نوح قومه فهي من قصة نوح عليه السلام .

وقال مقاتل ( أم يقولون ) يعني المشركين من كفار مكة افتراه يعني محمداً ﷺ اختلق القرآن من عند نفسه فعلى هذا القول تكون

هذه الآية معترضة في قصة نوح ثم رجع إلى القصة فقال سبحانه وتعالى ( وأوحى إلى نوح ... ) .

• وقال أبو حيان : قيل : هذه الآية اعترضت في قصة نوح ، والإخبار فيها عن قريش .

يقولون ذلك لرسول الله ﷺ أي : افتري القرآن ، وافتري هذا الحديث عن نوح وقومه ، ولو صح ذلك بسند صحيح لوقف عنده ،

ولكن الظاهر أن الضمير في يقولون عائد على قوم نوح ، أي : بل أيقولون افتري ما أخبرهم به من دين الله وعقاب من أعرض

عنه ، فقال النبي ﷺ قل : إن افتريته فعليّ إثم إجرامي .

وعلى قول من قال : إنها في شأن مشركي مكة : يكون المعنى ، لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذي لا

يحوم حوله باطل ، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن ، قل لهم : إن كنت قد

افتريته - على سبيل الفرض - فعليّ وحدي تقع عقوبة إجرامي وافترائي الكذب ، وأنا بريء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب .

( قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ ) أي : اختلقته وافتعلته ، يعني الوحي والرسالة .

( فَعَلَيّْ إِجْرَامِي ) أي : فأثم ذلك عليّ .

قال القرطبي : الإجماع مصدر أجمرت ؛ وهو اعتراف السيئة .

( وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ) مما تقترفونه من منكرات ، وما تكتسبونه من ذنوب .

الفوائد :

١- حرص نوح الشديد على هداية قومه ، بمجادلتهم وخطابهم المستمر .

٢- شدة كفر قوم نوح .

٣- أن الكفار دائماً يستعجلون العذاب .

٤- أن الأنبياء لا يعلمون الغيب ، فلا يعلمون متى نزول العذاب .

٥- لا أحد يستطيع أن يفلت من الله .

٦- نصيحة نوح لقومه .

٧- أن من لم يرد الله هدايته فلن يهتدي .

٨- أن المرجع إلى الله .

( وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) ) .  
[ هود : ٣٦ - ٣٧ ] .

( وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ) أي : بعد أن لج قوم نوح في طغيانهم، وطمعوا آذانهم عن سماع دعوته.. أوحى الله تعالى إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين، فإنه لم يبق في قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن، وبعد أن مكث فيهم زمناً طويلاً يدعوهم إلى الدخول في الدين الحق، فلم يزددهم دعاؤه إلا فراراً .  
( فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ) تسليية له ﷺ عما أصابه منهم من أذى.  
والابتئاس: الحزن. يقال: ابتأس فلان بالأمر، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه، والمبتئس: الكاره الحزين في استكانة.

أي : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم، وتماديهم في سفاهاتهم وطمعائهم، فقد آن الأوان للانتقام منهم.  
● قال ابن عاشور : قوله تعالى ( بما كانوا يفعلون ) هو إصرارهم على الكفر واعتراضهم عن النظر في الدعوة إلى وقت أن أوحى إليه هذا.

قال الله تعالى حكاية عنه ( فلم يزددهم دعائي إلا فراراً وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ) .  
● قال ابن الجوزي: قال المفسرون: لما أوحى إليه هذا، استجاز الدعاء عليهم، فقال (لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً).  
● وقد دعا نوح على قومه ونادى ربه:

قال تعالى (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلِهِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).  
وقال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّارًا. إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا).  
وقال تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ).  
● فإن قيل لماذا دعا نوح على قومه؟

دعا نوح على قومين لأمرين:

الأمر الأول: أن الله أخبره أنه لن يؤمن من قومك إلا القليل.

كما قال تعالى (وَأَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ).

الأمر الثاني: أن هؤلاء القوم سيضلون غيرهم.

كما قال تعالى (إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا).

● إشكال وجوابه :

من المعلوم أنه لا أحد لا يعلم الغيب إلا الله ، فكيف قال نوح (إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ .... ) .

والجواب : أن ذلك كان بوحي من الله ، ومما يدل على أنه وحي قوله تعالى (.. لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ) .

( وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ) يعني: السفينة .

والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح ﷺ .

وهذه السفينة قال تعالى ( فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ) .

( بِأَعْيُنِنَا ) أي: بمراى منا وتحت رعايتنا .

( وَوَحِينَا ) أي : بتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحيننا.

أي: وتعلمنا لك ماذا تصنعه .

( وَلَا تُخَاطَبِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ ) يعني بالطفوان .

والمعنى ولا تخاطبني في إمهال الكفار فإني قد حكمت بإغراقهم .

وقيل : ولا تخاطبني في ابنك كنعان وامراتك واعلة؛ فإنهما هالكان مع القوم .

● قال الشنقيطي : وهذا الوجه بعيد، لأن نوحاً قد ألح في دعائه لربه أن يهلكهم، فالصحيح أن المراد لا تخاطبني في تعجيل العذاب والإهلاك لقومك ، فإنه قد كتب وحن.

● قال الرازي : ففيه وجوه :

الأول : يعني لا تطلب مني تأخير العذاب عنهم فإني قد حكمت عليهم بهذا الحكم ، فلما علم نوح عليه السلام ذلك دعا عليهم بعد ذلك .

الثاني : (وَلَا تُخَاطَبِي) في تعجيل ذلك العقاب على الذين ظلموا، فإني لما قضيت إنزال ذلك العذاب في وقت معين كان.

الثالث : المراد بالذين ظلموا امرأته وابنه كنعان .

( وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ) بيان لامثال نوح لأمر ربه .

( وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ) السخرية : الاستهزاء والاستخفاف ، أي : استهزؤا منه وضحكوا عليه ..  
ومن سخريتهم :

أ- أنهم يقولون له : كيف تدعي النبوة ثم تصير نجاراً بعد ذلك ؟

ب- أنهم يرونه يصنع السفينة في أرض يابسة ، فيسألونه ماذا يريد بها ، فأخبرهم أنه يمشي بها على الماء ، فيهزون رؤوسهم ، لأنهم لم يعرفوا ذلك ، لأنها أول سفينة صنعت .

( قَالَ ) لهم نوح .

( إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ) أي : قال نوح لهم: إن تسخروا مني ومن أتباعي اليوم لصنعنا السفينة، وتستجهلوا منا هذا العمل، فإننا سنسخر منكم في الوقت القريب سخرية محققة في مقابل سخريتكم الباطلة.

● والسخرية والاستهزاء سنة ماضية من قبل أعداء الإسلام لأهله، فقد سخر واستهزأ بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال تعالى ( يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ الْكُفَّارَ اسْتَهْزَؤُوا بِرُسُلٍ قَبْلَ نَبِيِّنَا ﷺ وَأَنَّهُمْ حَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُفَصِّلْ هُنَا كَيْفِيَّةَ اسْتَهْزَائِهِمْ، وَلَا كَيْفِيَّةَ الْعَذَابِ الَّذِي أَهْلِكُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُ فَصَّلَ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، فِي ذِكْرِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، وَهُدُودِ وَقَوْمِهِ، وَصَالِحِ وَقَوْمِهِ، وَلُوطٍ وَقَوْمِهِ، وَشُعَيْبٍ وَقَوْمِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

فَمِنْ اسْتَهْزَائِهِمْ بِنُوحٍ قَوْلُهُمْ لَهُ (بَعْدَ أَنْ كُنْتَ نَبِيًّا صِرْتَ جَجَّارًا).

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)، وَأَمْثَالَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ يَهُودٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ (إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ).  
وَقَوْلِهِ عَنْهُمْ أَيْضًا (قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ الْآيَةِ).

وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي قَوْلِهِ (أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ .. )، وَأَمْثَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِصَالِحٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ (يَا صَالِحُ آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

وَقَوْلُهُمْ (يَا صَالِحُ فَذَكُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا .. ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ) وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِلُوطٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ... ) وَقَوْلُهُمْ لَهُ أَيْضًا (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

وَمِنَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِشُعَيْبٍ قَوْلُهُمْ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتُهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْمُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّينٍ) وَذَكَرَ مَا حَاقَ بِهِمْ بِقَوْلِهِ (فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) وَنَحْوَهَا مِنَ الْآيَاتِ.

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).

( فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ) وعيد شديد، وتهديد أكيد .

( مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ) أي: يهينه في الدنيا .

( وَجَلَّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ) أي: دائم مستمر أبداً .

الفوائد :

١- حكمة الله في قلة إيمان من آمن مع نوح .

٢- أن نوحاً قام بما يجب عليه من الدعوة والنصح ، لكن حكمة الله فوق كل اعتبار .

٣- تعليم الله لنبيه ورعايته له .

٤- أن الله إذا حكم بشيء فإنه لا يراجع في ذلك .

٥- أن السخرية والاستهزاء بالأنبياء وأتباعهم سنة ماضية .

٦- تهديد نوح لهؤلاء الكفار .

٧- ثقة نوح بوعد الله .

( حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ( ٤٠ ) ) .

[ هود : ٤٠ ] .

( حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ) المراد بالأمر ، وقت حلول وقت نزول العذاب بهم، فهو مفرد الأمور، أي: حتى إذا حل بهم وقت عذابنا.. قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين.

( وَفَارَ التَّنُّورُ ) يقال : فار يفور إذا غلا غلياناً شديداً .

وفي المراد بالتنور أقوال للعلماء :

فقيل : إن الكلام على سبيل المجاز، والمراد بقوله سبحانه فارَ التَّنُورُ التمثيل بحضور العذاب، كقولهم، حمى الوطيس، إذا اشتد القتال .

وقيل : أنه تنور الخبز ، وذلك أن الله تعالى جعله له علامة ، عندما يفور يغلم أن الإهلاك حاصل بعده .  
ورجحه ابن جرير ، لأن هذه اللفظ هو المتبادر من اللفظ .

قال ابن جرير : وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ عِنْدَنَا بِتَأْوِيلِ قَوْلِهِ (التَّنُورُ) قَوْلٌ مَنْ قَالَ: هُوَ التَّنُورُ الَّذِي يُجْبَزُ فِيهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَكَلَامُ اللَّهِ لَا يُوجَّهُ إِلَّا إِلَى الْأَعْغَلِبِ الْأَشْهَرِ مِنْ مَعَانِيهِ عِنْدَ الْعَرَبِ إِلَّا أَنْ تَقُومَ حُجَّةٌ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَيَسْتَلَمُ لَهَا. وَذَلِكَ أَنَّهُ جَلَّ تَنَاوُهُ إِثْمًا خَاطَبَهُمْ بِمَا خَاطَبَهُمْ بِهِ لِإِفْهَامِهِمْ مَعْنَى مَا خَاطَبَهُمْ بِهِ . ( التفسير ) .

وقيل : المراد به وجه الأرض ، أي : إذا فاض وجه الأرض بالماء ، فاركب لئلا يدركك الغرق .

● قال ابن كثير : أما قوله ( وَفَارَ التَّنُورُ ) فعن ابن عباس : التنور : وجه الأرض ، أي : صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار ، صارت تفور ماء ، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف .

● وقد أمر تعالى نوحاً أن يحمل معه ثلاثة أشياء:

( قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ) والمقصود بالزوجين كل شيئين يكون أحدهما ذكراً والآخر أنثى .

● لأن الله تعالى أخبر نوحاً أن الطوفان سيهلك كل موجود على وجه الأرض ، فأمر نوحاً أن يأخذ من كل جنس ذكراً وأنثى ليبقى التناسل في الأرض ، وهذا من رحمة الله .

( وَأَهْلِكَ ) أي : احمل أهلك ، والمراد بهم من كان مؤمناً منهم .

( إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ) أي إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله .

والمراد بمن سبق عليه القول:

زوجته التي جاء ذكرها في سورة التحريم في قوله تعالى ( ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ) .

وابنه الذي أبي أن يركب معه السفينة .

( وَمَنْ آمَنَ ) واحمل معك من آمن بك من قومك .

( وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ) مع طول مكثه فيهم .

الفوائد :

١- أن الله وضع علامة لقدم العذاب على الكافرين .

٢- تعليم الله لنبيه نوح من يحمل معه في السفينة .

٣- رحمة الله بعباده حيث أمر نوحاً أن يحمل معه من كل زوجين اثنين لبقاء التناسل .

٤- نجاة أهل الإيمان .

٥- أن العبرة بالإيمان لا بالأحساب .

٦- أن من كان كافراً فإنه لا تنفعه قرابته لنبي من الأنبياء .

٧- قلة من آمن مع نوح .

٨- عبرة وعظة لكل داعية في عدم حزنه لقلته من آمن معه .

٩- أن الحق والإيمان دائماً هم الأقل .

( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ) .

[ هود : ٤٠ - ٤٤ ] .

( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا ) يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة (ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا) أي: بسم الله يكون جرُّها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها، وهو رُسوها.

• قال الشوكاني : قوله ( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ) القائل نُوحٌ، وقيل: الله سبحانه، والأوَّلُ أَوْلَى، لقوله: إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

• وقال الألوسي : قوله تعالى ( وَقَالَ ) أي نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين كما ينبى عنه قوله تعالى ( إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ).

وقيل : الضمير لله تعالى ، وفيه أنه لو كان كذلك لكان المناسب إن ربكم الخ ، ولعل هذا القول بعد إدخال ما أمر بحمله في الفلك من الأزواج .

• قال الشنقيطي : ذكر الله تعالى في هذا الآية الكريمة : أن نبىه نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أمر أصحابه الذين قيل لهم احملهم فيها أن يركبوا فيها قائلاً : وَقَالَ ( بِسْمِ اللَّهِ جَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا ) أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها.

وبين في سورة الفلاح : أنه أمره إذا استوى على السفينة هو ومن معه أن يحمدا الله الذي نجاهم من الكفرة الظالمين ، ويسأله أن ينزلهم منزلاً مباركاً ، وذلك في قوله ( فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّأَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ) .

وبين في سورة الزخرف ما ينبغي أن يقال عند ركوب السفن وغيرها بقوله ( والذي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ) .

ومعنى قوله ( مُقْرِنِينَ ) أي : مطيقين .

• قال ابن كثير : ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى ( وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ) وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة "الزخرف" ، إن شاء الله وبه الثقة.

• قال الحازن : وهذا تعليم من الله لعباده أنه من أراد أمراً فلا ينبغي له أن يشرع فيه حتى يذكر اسم الله عليه وقت الشروع حتى يكون ذلك سبباً للنجاح والفلاح في سائر الأمور .

( إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكراً أنه غفور رحيم، كما قال ( إِنَّ رَبِّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ) ، وقال ( وَإِنَّ رَبِّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبِّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ) إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين انتقامه ورحمته.

( وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ) أي: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذي قد طبَّق جميع الأرض، حتى طفت على

رعوس الجبال، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً، وقيل: بشمانين ميلاً وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه .

● قال الشنقيطي : ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة : أن السفينة تجري بنوح ومن معه في ماء عظيم ، أمواجه كالجبال . وبين جريانها هذا في ذلك الماء الهائل في مواضع آخر .

كقوله ( إِنَّا لَمَّا طَعَا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ) .  
وقوله ( فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْتَهَمٍ فَجَرَّزْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَلْوَابِ وَدُسِّرَ بَحْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ) .

● قال ابن عاشور : والموج : ما يرتفع من الماء على سطحه عند اضطرابه ، وتشبيهه بالجبال في ضخامته .

● قال الرازي : الأمواج العظيمة إنما تحدث عند حصول الرياح القوية الشديدة العاصفة فهذا يدل على أنه حصل في ذلك الوقت رياح عاصفة شديدة ، والمقصود منه : بيان شدة الهول والفرع .

● قال ابن الجوزي : شبهه بالجبال في عظمه وارتفاعه .

( وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ) لا يختلفون أنه كان كافراً .

وفي اسمه قولان :

أحدهما : كنعان ، وهو قول الأكثرين .

والثاني : اسمه يام ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال عبيد بن عمير ، وابن إسحاق .

● وهذا كان قبل جريان السفينة في موج كالجبال ، إذ يتعذر إيقافها بعد جريها لأن الركاب كلهم كانوا مستقرين في جوف السفينة .

( وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ) المعزل في اللغة معناه : موضع منقطع عن غيره ، وأصله من العزل ، وهو التنحية والإبعاد .

قيل : في معزل من السفينة ، وقيل : في معزل من دين أبيه .

( يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ) تصغيره هنا تصغير شفقة بحيث يجعل كالصغير في كونه محل الرحمة والشفقة .

● قال ابن عاشور : قول نوح عليه السلام له ( اركب معنا ) كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتحذير .

قيل : المراد كان في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم ، وظن نوح عليه السلام أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه إلى السفينة ، وقيل : إنما ناداه لأنه كان ينافقه فظن أنه مؤمن ، واختاره كثير من المحققين وغيره ، وقيل : كان يعلم أنه كافر إلى ذلك الوقت لكنه التمس الظن أنه عند مشاهدة تلك الأهوال وبلوغ السيل الزبي ينزجر عما كان عليه ويقبل الإيمان ، وقيل : لم يجزم بدخوله في الاستثناء لما أنه كان كالمحمل فحملته شفقة الأبوة على أن ناداه .

( قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ) اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رعوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجّاه ذلك من الغرق .

● ظن ابن نوح أن ذلك المطر والتفجير على العادة ، فلذلك قال : سأوي إلى جبل يعصمني من الماء أي : من وصول الماء إليّ فلا أغرق ، وهذا يدل على عادته في الكفر ، وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر به .

( قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ) أي : ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله .

● قال الشنقيطي : الصحيح أن الاستثناء هنا منقطع ، أي : ولكن من رحم الله فهو معصوم كالمؤمنين . ( ضابط الاستثناء المنقطع : أن يستثنى بإلا شيء من غير جنس ما ذكر ) .

( وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ) أي : بين نوح وابنه ، وذلك أن الموج ارتفع حتى صار مثل الجبال ، فطغى عليه الطوفان .  
فَكَانَ مِنَ الْمَغْرُقِينَ ) الهالكين بالغرق .

( وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْنَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاؤُ أَقْلِعِي ) يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقْلِعَ عن المطر .

• قال ابن عاشور : والبلع حقيقته اجتياز الطعام والشراب إلى الخلق بدون استقرار في الفم .

• والقائل هو الله ، وإنما حذف للعلم به ، لأنه لا أمر لأحد على السماء والأرض بذلك غير رب العالمين .  
( وَغِيضَ الْمَاءِ ) أي : شرع في النقص .

( وَفُضِيَ الْأَمْرُ ) أي : فُرِعَ من أهل الأرض قاطبة، ممن كفر بالله، لم يبق منهم ديار .

كما قال تعالى ( إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) .

( وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ) أي : السفينة بمن فيها ( عَلَى الْجُودِيِّ ) قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة .

• قال ابن الجوزي : وفي علة استوائها عليه قولان :

أحدهما : أنه لم يغرق ، لأن الجبال تشاخصت يومئذ وتطاوالت ، وتواضع هو فلم يغرق ، فأرست عليه ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه لما قَلَّ الماء أُرْسَتْ عليه ، فكان استوائها عليه دلالة على قلة الماء .

• وقال القرطبي : وروي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتطاوالت ، وبقي الجودي لم يتناول تواضعاً لله ، فاستوت السفينة عليه : وبقيت عليه أعودها .

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال ( لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة " .

• وقال مجاهد : تشاخصت الجبال وتطاوالت لئلا ينالها الغرق ؛ فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعاً ، وتطامن الجودي ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق ، ورسست السفينة عليه .

وقد قيل : إن الجودي اسم لكل جبل .

ويقال : إن الجودي من جبال الجنة ؛ فلهذا استوت عليه .

ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر: الجودي بنوح، وطور سيناء بموسى، وجرأ بمحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

مسألة : لما تواضع الجودي وحضض عزاً، ولما ارتفع غيره واستعلى ذلًا، وهذه سنة الله في خلقه، يرفع من تخشع، ويضع من ترفع؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذللَّتِ الرِّقَابُ تُخْشَعًا ... مِمَّا إِلَيْكَ فَعَزُّهَا فِي دُجَاهَا .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال ( كانت ناقة للنبي ﷺ تُسَمَّى الْعَضْبَاءُ؛ وكانت لا تُسَبِّقُ؛ فجاء أعرابي على فعودٍ له فسبقتها، فاشتد ذلك على المسلمين؛ وقالوا: سُبِّقت العضبَاءُ فقال رسول الله ﷺ : " إن حقًا على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه ) .

وخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال ( ما نَقَّصت صدقةً من مالٍ وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزًّا وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله ) .

( وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ) أي: هلاكًا وخسارًا لهم وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية .

قيل : هذا من كلام نوح ، وقيل : من كلام الله .

• قال الرازي : فيه وجهان :

الأول : أنه من كلام الله تعالى قال لهم ذلك على سبيل اللعن والطرء.

والثاني : أن يكون ذلك من كلام نوح عليه السلام وأصحابه لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام ولأنه جار مجرى الدعاء عليهم فجعله من كلام البشر أليق .

فائدة :

قال بعض العلماء :

( قَالَ سَأْوِي إِلَى حَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ) هذا عقل .

( قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ) هذا وحي .

وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ... ) هذه نتيجة من قدم عقله على الكتاب والسنة غرق في بحور الأهواء .

الفوائد :

١- مشروعية التسمية في بداية كل عمل ، تشريع التسمية ( استحباباً أو وجوباً ) في مواضع :

منها : عند الوضوء .

لقوله ﷺ ( لا صلاة لمن لا وضوء له ) رواه أبو داود .

ومنهما : عند الركوب .

قال الله تعالى ( وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ ) .

وفي حديث علي ( ... وَأَيُّ بَدَايَةِ لِيَرْكَبَهَا ، فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله .... الحديث وفي آخره قال : رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت ) رواه أبو داود .

ومنهما : عند الذبح والصيد .

لقوله تعالى ( فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ) .

وقال تعالى ( وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ ) .

وعن عدي بن حاتم . قال : قال رسول الله ﷺ ( إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ) متفق عليه .

ومنهما : عند الأكل .

لحديث عمرو بن سلمة . قال ( كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ ، وكانت يدي تطيش في الصحيفة فقال : يا غلام سم الله ، وكل بيمينك .... ) متفق عليه .

ومنهما : عند دخول المنزل .

لحديث جابر . أن رسول الله ﷺ قال ( إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله ، وعند طعامه ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ) رواه مسلم .

ومنهما : عند الجماع .

لحديث ابن عباس . عن النبي ﷺ أنه قال ( لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ... ) متفق عليه .

ومنهما : عند الخروج من البيت .

لحديث أنس . قال : قال رسول الله ﷺ ( إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له حينئذ : هديت وكفيت ... ) رواه أبو داود .

ومنها : في المساء والصباح .

لحديث عثمان . قال : قال رسول الله ﷺ ( من قال : بسم الله ، الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ، ثلاث مرات ، لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح ... ) رواه أبو داود .

ومنها : إذا عثر المرء أو عثرت دابته .

لحديث رجل قال ( كنت رديف النبي ﷺ فَعَثِرَ بالنبي ﷺ فقلت : تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : لا تقل تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاضم وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب ) رواه أبو داود .  
ومنها : عند وضع الميت في قبره .

لحديث ابن عمر ( أن النبي ﷺ كان إذا وضع الميت في القبر قال : بسم الله ، وعلى سنة رسول الله ) رواه أبو داود .

٢- من آيات الله نجات المؤمنين وهلاك الظالمين .

٣- كل شيء يجري بأمر الله .

٤- من رحمة الله نجات أهل الإيمان وغرق أهل الكفر والضلال .

٥- شدة الطوفان وارتفاع أمواجه .

٦- من لم يكتب الله له الهداية فلن يهتدي .

٧- حكمة الله : في عدم إيمان ابن نوح .

٨- مصداق : يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي .

٩- أن الأنبياء لا يستطيعون هداية أحد إلا من أَرَادَ اللهُ هدايته .

١٠- لا ينفع ولا يرد أمر الله إذا جاء شيء .

( وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ) .  
[ هود : ٤٥ - ٤٩ ] .

( وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ) هذا سؤال استعلام وكشف من نوح ﷺ عن حال ولده الذي غرق .

( فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ) أي : وقد وعدتني بنجاة أهلي .

( وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ) ووعدك الحق الذي لا يخلف .

( وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ) فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟

● واكتفى نوح ﷺ بأن يقول: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي. وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ دون أن يصرح بمطلوبه وهو

نجاة ابنه تادباً مع الله تعالى وحياء منه سبحانه واعتقاداً منه بأنه سبحانه عليم بما يريد، وخبير بما يجول في نفسه.

● قال الشوكاني : قوله تعالى ( إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ) أي : أَنَّهُ مِنَ الْأَهْلِ الَّذِينَ وَعَدْتَنِي بِتَنْجِيهِمْ بِقَوْلِكَ : وَأَهْلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ طَلَبَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِجْحَارَ مَا وَعَدَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: وَأَهْلِكَ وَهُوَ الْمُسْتَشْتَى مِنْهُ، وَتَرَكَ مَا يُفِيدُهُ الْإِسْتِثْنَاءُ، وَهُوَ إِلَّا

مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ؟ فَيُجَابُ: بِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ إِذْ ذَلِكَ أَنَّهُ مِمَّنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، فَإِنَّهُ كَانَ يَظُنُّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

● **قال القاسمي:** وإنما قال نوح ذلك- أي: رب إن ابني من أهلي.. الخ- لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية، والرحمة النسبية، وغفل- لفرط التأسف على ابنه- عن استثنائه تعالى بقوله: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ولم يتحقق أن ابنه هو الذي سبق عليه القول، فاستعطف ربه بالاسترحام، وعرض بقوله وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده .

يقول المؤرخون: إن أبناء نوح أربعة: أحدهم هذا الذي خاطب الله فيه، ويسمى: كنعان، والثلاثة الباقون هم مؤمنون، ومنهم كان النسل البشري الباقي كما قال تعالى ( وجعلنا ذريته هم الباقين ) .

( قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ) الموعود بنجاتهم .

● **قال ابن كثير:** أي الذين وعدت بإنجاءهم؛ لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال ( وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ) فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً ﷺ .

● فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه، لخلوه عن الدليل .

● قول إنه ليس بابنه، وإنما ابن زنية قول عظيم، وجرم كبير .

● **قال ابن كثير:** قال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله ( إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ) أي: الذين وعدت بنجاتهم .

وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لِكَلِّمِ امْرَأَتِهِمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) إلى قوله ( إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ) .

أما قوله تعالى ( فحانتاهما ) فالمراد الحيانة في الدين، وذلك أن امرأة نوح كانت تخبر قومها بمن آمن معه فيعذبونهم، وامرأة لوط كانت توقد الدخان لقومها علامة على أن عند لوط ناساً ليأتوا فيفعلوا بهم الفاحشة .

( إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ) تعليل لانتفاء كونه من أهله .

● **قال البقاعي:** قوله تعالى ( إنه ليس من أهلك ) أي المحكوم بنجاتهم لإيمانهم وكفره، ولهذا علل بقوله ( إنه عمل ) أي ذو عمل، ولكنه جعله نفس العمل في قراءة الجماعة مبالغة في ذمه .

● **قال الشوكاني:** قَرَأَ الْجُمُهُورُ: عَمَلٌ، عَلَى لَفْظِ الْمَصْدَرِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَيَعْقُوبُ: عَمِلٌ، عَلَى لَفْظِ الْفِعْلِ .

وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّهِ كَأَنَّهُ جُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، وَأَصْلُهُ ذُو عَمَلٍ غَيْرِ صَالِحٍ ثُمَّ حَذَفَ الْمُضَافَ وَجُعِلَ نَفْسَ الْعَمَلِ، كَذَا قَالَ الرَّجَّاحُ وَعَيْرُهُ. وَمَعْنَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ ظَاهِرٌ، أَي: إِنَّهُ عَمِلٌ عَمَلًا غَيْرَ صَالِحٍ، وَهُوَ كُفْرُهُ وَتَرْكُهُ لِمُتَابَعَةِ أَبِيهِ .

● **ذهب بعض العلماء:** إلى أن هذا الضمير عائد إلى هذا السؤال، فكان التقدير أن هذا السؤال عمل غير صالح، أي قولك: إن ابني من أهلي لطلب نجاته عمل غير صالح، وذلك يدل على أن هذا السؤال كان ذنباً ومعصية .

● **قال الرازي:** هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب، فإن في هذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة

من أقوى الوجوه، ولكن لما انتفت قرابة الدين، لا جرم نفاه الله تعالى بأبلغ الألفاظ وهو: قوله: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ .

● قال القرطبي : في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين.

( فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ) أي : لا تطلب مني الشيء الذي لا تعلم أن في طلبك إياه مصلحة ، لأنك إذا سألت شيئاً لا ينبغي وقوعه ، فقد طلبت من الله أ، يفعل ما لا ينبغي ، فكأنك هنا قلت : اللهم أنج كافرًا من الكفار .  
( إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ) أي : إني أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها ، ولا يعلمون حقائق الأشياء .

● قال الشوكاني : أي أهدرك أن تكون من الجاهلين، كقوله: يَعْظُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: أَرْفَعُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذِهِ زِيَادَةٌ مِنَ اللهِ وَمَوْعِظَةٌ يَرْفَعُ بِهَا نُوحًا عَنْ مَقَامِ الْجَاهِلِينَ، وَيُغْلِبُهُ بِهَا إِلَى مَقَامِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ .

( قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ) أي : أعتصم وأتمتع بك من أن أقع في هذا الخطأ مرة أخرى ، استعاذ بالله من أن يقع في ذلك في المستقبل .

( وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ) أي : إن لم تستر ما مضى لي من الذنب ، وتغمرني برحمتك التي وسعت كل شيء أكن في عداد الخاسرين .

( قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ) لما أمر الله الأرض ببلع الماء ، والسماء بالكف عن إنزاله ، واستوتت السفينة على الجبل أحب نوح ومن معه النزول ، فأمره الله بالهبوط هو ومن معه .  
والمراد هنا : قيل : من السفينة ، وقيل : من الجبل .

● قال أبو حيان : قيل : القائل هو الله تعالى ، وقيل : الملائكة تليغاً عن الله تعالى ، والظاهر الأول لقوله : منا.

( بِسَلَامٍ مِّنَّا ) أي : مصحوباً بسلام ، أي : بتحية وسلامة .

وهذا من إكرام الله لنبيه نوح ، حيث كان عبداً شكوراً .

● فضائل نوح:

أولاً: ثناء الله عليه.

قال تعالى (ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا).

ثانياً: أول رسول للبشر.

لحديث أبي هريرة - حديث الشفاعة- قال ﷺ ( ... فيأتون نوحاً فيقولون أنت أول رسول إلى البشر، وسمك الله عبداً شكوراً).

ثالثاً: أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب.

رابعاً: استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب.

قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ. وَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

( وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ) أي : خيرات كثيرة .

● قال الخازن : والبركة هي ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، وقيل : المراد بالبركة هنا أن الله سبحانه وتعالى جعل ذريته هم الباقين

إلى يوم القيامة فكل العالم من ذرية أولاده الثلاثة ولم يعقب من كان معه في السفينة غيرهم .

( وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ) واختلّفوا في المراد منه على ثلاثة أقوال : منهم من حمّله على أولئك الأقوام الذين نجوا معه وجعلهم أمماً وجماعات ، لأنه ما كان في ذلك الوقت في جميع الأرض أحد من البشر إلا هم ، فلهذا السبب جعلهم أمماً .

ومنهم من قال : بل المراد ممن معك نسلًا وتولدًا قالوا : ودليل ذلك أنه ما كان معه إلا الذين آمنوا وقد حكم الله تعالى عليهم بالقللة في قوله تعالى ( وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ) .

ومنهم من قال : المراد من ذلك مجموع الحاضرين مع الذين سيولدون بعد ذلك .

( وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أي : أن الأمم التي تكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين : قسم منهم له منا السلام، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح . وقسم آخر ستمتعه في الدنيا وبالكثر من زينتها وخيراتها، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا، وعصيانه لرسولنا .

فعلى كل عاقل أن يجتهد في أن يكون من القسم الأول، وأن يتجنب القسم الثاني .

● قال الخازن : قوله تعالى (وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ .. ) هذا ابتداء كلام ، أي : وأمم كافرة يحدثون بعدك ستمتعهم يعني في الدنيا إلى منتهى آجالهم .

( تِلْكَ ) الإشارة إلى ما مضى من قصص نوح ، من دعوته قومه إلى عبادة الله .

( مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ) أي : تلك القصص التي أخبرناك بها من الأمور التي هي غائبة عن الناس .

وفي هذا أعظم معجزة للنبي ﷺ ، حيث إنه أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وإذا به يخبر عن غرائب التاريخ التي مضى عليها آلاف السنين ، فليست إلا بوحى من الله .

( مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ) أي : هذه القصة وأمثالها ما كنت تعلمها أنت يا محمد، وما كان يعلمها

قَوْمُكَ أيضًا، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة، الخالية من الأساطير والأكاذيب ، مِنْ قَبْلِ هَذَا الوقت الذي أوحيناها إليك فيه .

( فَاصْبِرْ ) وما دام الأمر كذلك فاصبر صبراً جميلاً على تبليغ رسالتك، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل .

وفي هذا أن أعظم ما يعين على الصبر قراءة سير من تقدم من الأنبياء والعظماء والعلماء العاملين وكيف صبروا وضحو .

● قال الرازي : وفيه تنبيه على أن الصبر عاقبته النصر والظفر والفرح والسرور كما كان لنوح ﷺ ولقومه .

● وإنما أمره بالصبر لأمر:

أولاً: لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر).

ثانياً: أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات .

ثالثاً: وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

رابعاً: وليكون قدوة لغيره .

( إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّعِينَ ) تعليل للأمر بالصبر .

أي : إن العاقبة الحسنة الطيبة في الدنيا والآخرة، للمتقين الذين صابروا أنفسهم عن كل ما لا يرضى الله تعالى، وليست لغيرهم ممن استحبو العمى على الهدى .

**الفوائد :**

١- أهمية عقيدة الولاء والبراء في الإسلام .

قال بعضهم : لو كان الولاء للأرض ما ترك النبي مكة - ولو كان للقبيلة ما قاتل قريشاً - ولو كان للعائلة ما تبرأ من أبي لهب ، ولكنها العقيدة أغلى من التراب والدم .

٢- أن ابن نوح كان كافراً ، فلم يستحق النجاة .

- ٣- أن العبرة بالدين بالإيمان والعمل لا بالأحساب والأنساب .
- ٤- أن الأنبياء بشر كغيرهم ، لا يستطيعون هداية أحد إلا بأذن الله .
- ٥- الرد على من يرفع نبياً من الأنبياء فوق منزلته ، فنوح لم يستطع هداية ابنه ، ونبينا ﷺ لم يستطع هداية عمه .
- ٦- حكمة الله في عدم هداية ابن نوح .
- ٧- أن كل أحد - حتى الأنبياء - بحاجة إلى رحمة الله ومغفرته .
- ٨- ثناء الله على نوح .
- ٩- معجزة ظاهرة للنبي ﷺ ، حيث أخبر بهذا الأنباء التي لا يعلمها إلا الله .
- ١٠- أمر النبي ﷺ بالصبر .
- ١١- أن الصبر من أسباب النصر والتمكين والرفعة ، حيث صبر نوح فنصره الله ومكنه .
- ١٢- علينا الاقتداء بالأنبياء في صبرهم وجهادهم وتحملهم .
- ١٣- أن العاقبة في الدنيا والآخرة لمن اتقى الله .

١٢ رمضان ١٤٣٩هـ .

( وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَنجِرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَلْغَيْنَاكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ (٥٧) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ) .

[ هود : ٥٠ - ٦٠ ] .

( وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ) يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحًا، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا.

- وهذه الأمم يُفصُّ الله خبرها على هذه الأمة لتستفيد من ذلك فوائد عظيمة (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ) فيخافُ المكذوبون للرسول الجاحدون بآياتِ الله أن ينزلَ بهم مثلُ ما نزلَ بأولئك من المثلاتِ، ومن عذابِ الله المستأصلِ المتصلِ بعذابِ النارِ، وكذلك يُعلِّمُ الناسَ الآدابَ، وآدابُ الدعاةِ إلى الله في لينهم وعظفهم، ولينِ كلامهم، وكرمِ مخاطبتهم، وعدمِ بذاءتهم وكلامهم بكلامِ الجاهلين .
- وعاد قبيلة عظيمة، وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ \* إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ \* الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) .

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل.

قال تعالى (وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّجُومُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ).

- قال ابن كثير: هذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، وأن هودا عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل صلوات الله عليهم إنما يعيهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق؛ ولهذا دعاهم هود عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.
- قوله تعالى (أخا هوداً) أي: أخاهم في النسب لا في الدين خلافاً لمن زعم أن أصله ليس منهم.
- قال الرازي: اتفقوا على أن هوداً ما كان أخاً لهم في الدين.
- والسر في التعبير بالأخوة لهم: ليزداد التشنيع عليهم، لأنه منهم يعلمون صدقه وثقته وشرفه.
- قال الألوسي: وحكمة كون النبي يبعث إلى القوم منهم أنهم أفهم لقوله من قول غيره وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله.

( قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ) كل دعوات الرسل هي مضمون (لا إله إلا الله) التي قام عليها أمر السماوات والأرض، وخلقت من أجلها الجنة والنار، ولهذا كل رسول يبدأ قومه بالدعاء إليها (مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) أي: ليس لكم معبود يستحق منكم العبادة غيره، لأنه الخالق الرازق المدبر.

( إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ) الافتراء: الكذب المتعمد الذي لا شبهة لصاحبه في النطق به.

أي : ما أنتم إلا متعمدون للكذب في جعلكم الألوهية لغير الله تعالى .

- وقال في سورة الأعراف ( أَفَلَا تَتَّقُونَ ) أي: أفلا تحافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه.
- قال أبو حيان: وفي قوله (أَفَلَا تَتَّقُونَ) استعطاف وتحضيض على تحصيل التقوى، ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال لهم: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وواقعة هود كانت مسبقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم: أَفَلَا تَتَّقُونَ ، والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا، فقلوه: أَفَلَا تَتَّقُونَ إشارة إلى التحذير بتلك الواقعة المشهورة.
- ( يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ) أي: لَا أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَجْرًا عَلَى مَا أَبْلَغُهُ إِلَيْكُمْ، وَأَنْصَحُكُمْ بِهِ مِنَ الْإِرْشَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ لَكُمْ سِوَاهُ .

( إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ) أي: مَا أَجْرِي الَّذِي أَطْلُبُ إِلَّا مِنَ الَّذِي فَطَرَنِي، أَي: خَلَقَنِي فَهُوَ الَّذِي يُبَيِّنُنِي عَلَى ذَلِكَ .

- ومقصده من هذا القول، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك في نفوسهم، من أنه ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه، إلا لأنه رجل يتبعى منهم الأجر الذي يجعله موسراً فيهم .

- قوله (إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي) كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ \* إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي).

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفتقر حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

- قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم، كما قال تعالى (وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى (وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ

خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

وقيل: ليدكرهم بذلك نعمته عليهم.

• والله عز وجل بينه كثيراً على هذا المعنى، ويذكر المشركين بذلك، وأن الخالق هو المستحق للعبادة:

قال تعالى ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلًا فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ).

وقال تعالى (أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ).

وقال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَدَّكَّرُونَ).

وقال تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

( أَفَلَا تَعْقِلُونَ ) أفلا تعقلون إلى ما أدعوكم إليه ، خاصة وأنه موجب لقبوله ، منتفٍ المانع عن رده .

• ثُمَّ رَغِبَهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِالْحَبِيرِ الْعَاجِلِ

( وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ) الاستغفار: طلب المغفرة من الله - تعالى - وعدم المؤاخذة على الخطايا:

والتوبة: العزم على الإقلاع عن الذنب، مع الندم على ما حصل منه في الماضي.

أي : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح.

( يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ) أي : يُرْسِلِ السَّمَاءَ أَي: الْمَطَرُ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا أَي: كَثِيرَ الدُّرُورِ، وَهُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ،

دَرَّتِ السَّمَاءُ ثُدْرًا وَتَدَّرَتْ فَهِيَ مِدْرَارٌ، وَكَانَ قَوْمٌ هُودٌ أَهْلُ بَسَاتِينَ وَرَزَعٍ وَعِمَارَةٍ، وَكَانَتْ مَسَاكِينُهُمُ الرِّمَالُ الَّتِي بَيْنَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ .

( وَبَرِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ) معطوفة على ما قبلها ، أي : وأيضاً إن فعلتم ذلك زادكم الله تعالى عزاً إلى عزكم، وشدة إلى

شدتكم التي عرفتم بها، ووهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة.

( وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ) أي: لَا تُعْرِضُوا عَمَّا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وَتُثْقِمُوا عَلَى الْكُفْرِ مُصْرِينَ عَلَيْهِ، وَالْإِحْرَامُ: الْأَثَامُ .

( قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ) يخبر تعالى إخباراً عن قوم هود أنهم قالوا لنبیهم ( مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ) أي: بحجة ولا دلالة ولا

وبرهان على ما تدعيه .

• قال ابن عطية : ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق ، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو

هذا ، وقد قال رسول الله ﷺ ( ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ) الحديث ، وهذا يقضي بأن

هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضه .

• قال أبو حيان : وقد كذبوا في ذلك وبهتوه كما كذبت قريش في قولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) وقد جاءهم بآيات

كثيرة، أو لعمائمهم عن الحق وعدم نظرهم في الآيات اعتقدوا ما هو آية ليس بآية فقالوا: ما جئتنا ببينة تلجئنا إلى الإيمان،

وإلا فهود وغيره من الأنبياء لهم معجزات وإن لم يعين لنا بعضها، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ: ما من نبي إلا وقد أوتي

من الآيات ما مثله آمن عليه البشر .

( وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ) أي: بمجرد قولك : اتركوهم ، نتركهم .

( وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ) بمصدقين .

( إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ) أي : يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخجل في عقلك بسبب

نميك عن عبادتها وعيبك لها .

( قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ ) أي : قال هود ﷺ للظلمة من قومه بعزة وثقة إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ الَّذِي لَا رَبَّ سِوَاهُ عَلَى بِرَائَتِي مِنْ عِبَادَتِكُمْ

لغيره.

( **وَاشْهَدُوا** ) وَاشْهَدُوا أَنْتُمْ أَيْضًا .

( **أَيُّ بَرِيءٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** . مِنْ دُونِهِ ) عَلَى أَيِّ بَرِيءٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ .

أي : على براءتي من كل عبادة تعبدونها لغير الله تعالى لأنها عبادة باطلة ، يحتقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

( **فَكِيدُونِي جَمِيعًا** ) أي: أنتم وأهنتكم إن كانت حقاً .

( **ثُمَّ لَا تُنظِرُون** ) أي: طرفة عين .

فأنت تراه في هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لأهنتهم، وبراءته من شركهم، واستخفافه .

● وهذا من أعظم الآيات، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقتهم بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخال بهم .

● قال ابن كثير : وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا توالي ولا تُعادي، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له، الذي بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

● وقال القرطبي : قوله تعالى عن هود ( **ثُمَّ لَا تُنظِرُون** ) أي لا تؤخرون ، وهذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى.

وهو من أعلام النبوة ، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : **فَكِيدُونِي جَمِيعًا** .

وكذلك قال النبي ﷺ لقريش ، وقال نوح ﷺ ( **فَاجْعُوا أَمْرَكُمْ وَأَشْرِكُوا لَكُمْ** ) .

● وقال ابن القيم : ... حَتَّى إِنْ مِنْ أَخْفَى آيَاتِ الرُّسُلِ آيَاتُ هُودٍ عليه السلام، حَتَّى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ( يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ) وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُهُ مِنْ أَظْهَرِ الْبَيِّنَاتِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ ( **إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَيُّ بَرِيءٍ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون** ) . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْآيَاتِ: أَنَّ رَجُلًا وَاحِدًا يُخَاطَبُ أُمَّةً عَظِيمَةً بِهَذَا الْخُطَابِ، غَيْرَ حَزِرٍ وَلَا فَرْعٍ، وَلَا خَوَارٍ، بَلْ وَائِقٍ مِمَّا قَالَه جَارِمٌ بِهِ، قَدْ أَشْهَدَ اللَّهَ أَوَّلًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ، وَمِمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِشْهَادٌ وَائِقٍ بِهِ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِ، مُعْلِمٌ لِقَوْمِهِ: أَنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسَلِّطِهِمْ عَلَيْهِ.

ثُمَّ أَشْهَدُهُمْ - إِشْهَادٌ مُجَاهِرٌ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ - : أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَأَهْلِيَّتِهِمْ، الَّتِي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيُعَادُونَ، وَيَبْدُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهَا.

ثُمَّ أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِالِاسْتِهَانَةِ بِهِمْ، وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَوْ يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ، وَشَفَاءِ عَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُمَّ يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمְهَلُونَهُ، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ: أَنَّهُمْ أَضْعَفُ وَأَعَجْزُ وَأَقْلُ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَّكُمْ لَوْ زُمْتُمْوهُ لَأَنْعَلَبْتُمْ بَعِيْظَكُمْ مَكْبُوتِينَ مَخْدُولِينَ.

ثُمَّ قَرَّرَ دَعْوَتَهُ أَحْسَنَ تَقْرِيرٍ، وَبَيَّنَّ أَنَّ رَبَّهُ تَعَالَى وَرَبَّهُمْ، الَّذِي نَوَاصِيَهُمْ بِيَدِهِ: هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ، الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَآمَنَ بِهِ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ، وَلَا يَكُونُ مَعَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ - فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ - يَمْنَعُ ذَلِكَ وَيَأْبَاهُ.

● وقال الخازن: ( قال ) يعني قال هود مجيباً لهم ( **إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا** ) أي : واشهدوا أنتم أيضاً علي ( **أني باريء مما تشركون من دونه** ) يعني هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها ( **فكيدوني جميعاً** ) يعني احتالوا في كيدي وضري أنتم وأصنامكم التي تعتقدون أنها تضر وتنفع فإنها لا تضر ولا تنفع ( **ثم لا تنظرون** ) يعني ثم لا تمهلون ، وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه

السلام وذلك أنه كان وحيداً في قومه فما قال لهم هذه المقالة ولم يهيبهم ولم يخف منهم مع ما هم فيه من الكفر والجبروت إلا لثقتة بالله وتوكله عليه .

● فائدة : آيات الأنبياء تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : منها ما هو مُعْجَز .

كالقرآن الكريم ، وناقاة صالح ، وانشقاق القمر ، والآيات التسع التي أعطيتها موسى .

والقسم الثاني : ما ليس بمعجز .

مما يعرف بما صدقه ، كالأشياء التي سأل عنها هرقل لأبي سفيان .

( **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ** ) أي : إني فوضت أمري إلى الله الذي هو ربي وربكم، ومالك أمرى وأمركم، والذي لا يقع في هذا الكون شيء إلا بإرادته ومشئته.

وفي قوله ( **رَبِّي وَرَبِّكُمْ** ) مواجهة لهم بالحقيقة التي ينكرونها، لإفهامهم أن إنكارهم لا قيمة له، وأنه إنكار عن جحود وعناد.. فهو سبحانه بهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه.

( **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ) أي : ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا والله تعالى مالكتها وقاهر لها، وقادر عليها، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك في ملكه.

● قال الأزهري : الناصية عند العرب منبت الشعر في مقدم الرأس ويسمى الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته.

واعلم أن العرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا : ما ناصية فلان إلا بيد فلان ، أي أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت ناصيته فقد قهرته ، وكانوا إذا أسروا الأسير فأرادوا إطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فحطبوها في القرآن بما يعرفون فقوله ( **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ) أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته ، ومنقاد لقضائه وقدره.

( **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ) أي : على عدل ، وقسط ، وحكمة ، وحمد في قضائه وقدره ، في شرعه وأمره ، وفي جزائه وثوابه وعقابه ، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم التي يحمد عليها ويثنى عليه بها .

● قال الخازن : يعني إن ربي وإن كان قادراً وأنتم في قبضته كالعبد الذليل فإنه سبحانه وتعالى لا يظلمكم ولا يعمل إلا بالإحسان والإنصاف والعدل فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه .

● وقال ابن القيم : أي مع كونه سبحانه آخِذاً بِنَاصِي خَلْقِهِ وَتَصْرِيفِهِمْ كَمَا يَشَاءُ فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ إِلَّا بِالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ . فَقَوْلُهُ مَاضٍ فِي حُكْمِكَ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ ( **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ) وَقَوْلُهُ عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ ( **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ) .

● قال ابن القيم : ولذا قال هود لِقَوْمِهِ ( **إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ) إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَقَوْلُهُ ( **مَاضٍ فِي حُكْمِكَ عَدْلٌ فِي قَضَائِكَ** ) تَضَمَّنَ هَذَا الْكَلَامَ أَمْرَيْنِ :

أحدهما : إمضاء حكمه في عبده ، والثاني : يتضمَّن حَمْدَهُ وَعَدْلَهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَهُ الْمَلِكُ وَلَهُ الْحَمْدُ .

وهذا معنى قول نبيه هود ( **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ) ثُمَّ قَالَ ( **إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ) أي : مع كونه مالِكاً قاهراً متصرفاً في عباده نواصيهم بيده فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَهُوَ الْعَدْلُ الَّذِي يَتَصَرَّفُ بِهِ فِيهِمْ فَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فِي قَوْلِهِ وَفَعَلَهُ وَقَضَائِهِ وَقَدْرَهُ وَأَمْرَهُ وَنَهْيِهِ وَثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ فَخَبَّرَهُ كُلَّهُ صِدْقَ وَقَضَائِهِ كُلَّهُ عَدْلَ وَأَمْرَهُ كُلَّهُ مَصْلِحَةَ وَالَّذِي نَهَى عَنْهُ كُلَّهُ وَمُفْسَدَةَ وَثَوَابِهِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعِقَابِهِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ بِعَدْلِهِ وَحُكْمَتِهِ .

( **فَإِنْ تَوَلَّوْا** ) يعني تتولوا بمعنى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم .

( فَقَدْ أَبْلَغْتُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ) أي : فقد فعلت ما أمرت به ، وبذلت ما في وسعي ، لأبلغكم ما أرسلني الله به إليكم . قال تعالى ( ما على الرسول إلا البلاغ ) .

( وَاسْتَخْلَفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ) أي : أن ربي غني عنكم ، فلو شاء لأماتكم على كفركم فلقبتم جزاءكم في الآخرة ، وجعل في الأرض خلفاً غيركم ، ولا تضرونه بذلك ، وإنما تضرون أنفسكم .

● نستفيد من هذه الآية : أن معصية العاصين لا تضر الله شيئاً ، كما يفهم منها أن طاعة الطائعين لا تنفع الخالق .

قال ﷺ ( قال تعالى : يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ) .

( إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ) الحفيظ الرقيب الذي يحفظ الأشياء .

● قال ابن كثير : أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

( وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ) أي : بإهلاك عاد .

وقد أهلكهم الله بالريح العقيم .

قال تعالى ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُبَيِّنَهُمْ عَذَابَ الْحَزْنِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ) .

وقال تعالى ( وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ) .

وقال تعالى ( كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ . تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ) .

وقال تعالى ( وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ) .

( رِيحاً صَرْصَرًا ) أي : ريحاً شديدة البرودة ، شديدة الصوت . وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها كما قال تعالى ( وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ . مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ) .

(العقيم) التي لا تنتج خيراً .

(كالريم) أي : كالشيء البالي الفاني .

( سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ) سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً : أي متتابعات بلا انقطاع مشوومات نحسات .

( كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ) أي : كأنهم جذوع وسيقان النخل التي قطعت رؤوسها الخاوية ، الساقط بعضها على بعض

● (خاوية) ميتة منقلعة من منابتها هامة ساقطة على الأرض فهم أجساد بلا رؤوس .

( نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ) تنجية مصحوبة برحمة عظيمة كائنة منّا بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

● قال الخازن : وذلك أن العذاب إذا نزل قد يعم المؤمن والكفار فلما أنجى الله المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله وكرمه .

● وقال أبو حيان : والظاهر تعلق برحمة منا بقوله : نجينا أي ، نجيناهم بمجرد رحمة من الله لحقتهم ، لا بأعمالهم الصالحة .

أو كنى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة ، إذ توفيقهم لها إنما هو بسبب رحمته تعالى إياهم .

● وقال ابن عاشور : والباء في ( برحمة منّا ) للسببية ، فكانت رحمة الله بهم سبباً في نجاتهم .

والمراد بالرحمة فضل الله عليهم لأنه لو لم يرحمهم لشملهم الاستئصال فكان نقمة للكافرين وبلوى للمؤمنين .

( وَنَجَّيْنَا هُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ) أي : من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل

خاوية.

- ووصف العذاب بأنه غليظ، بهذا التصوير المحسوس، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة في الأجسام، ومن تفاخر بالقوة.  
قال تعالى ( فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ) .  
وكان عذابهم كما جاء في آيات أخرى بالريح العقيم كما تقدم .
- **قال بعض العلماء :** المراد بالعذاب الغليظ هو عذاب الآخرة ليحصل الفرق بين العذابين والمعنى أنه تعالى كما أنجاهم من عذاب الدنيا كذلك ينجيهم من عذاب الآخرة ووصف عذاب الآخرة بكونه غليظاً لأنه أعظم من عذاب الدنيا .  
( **وَتِلْكَ عَادٌ** ) اسم الإشارة في قوله تعالى ( **وَتِلْكَ عَادٌ** ... ) يعود إلى القبيلة أو إلى آثامهم التي خلفوها من بعدهم .  
أي : وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها هود- عليه السلام- وتلك هي عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيراً لهم، وتحويلنا من شأنهم بعد أن انتهوا، وبعثوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة.
- **قال الخازن :** وتلك عاد رده إلى القبيلة وفيه إشارة إلى قبورهم وآثارهم كأنه قال سيروا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا بها .  
( **جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ** ) بيان لجرائمهم التي استحقوا بسببها العذاب الغليظ.  
والجحد: الإنكار الشديد للحق الواضح.  
وآيات ربه: الحجج والبراهين التي جاء بها الأنبياء من ربه للدلالة على صدقهم.  
والجبار: هو الشخص المتعالي المتعظم على الناس، المترفع عن الاستجابة للحق.
- **قال الرازي :** والمراد من الجبار المترفع المتمرد العنيد المعنود والمعاند ، وهو المنازع المعارض.
- **قال القرطبي :** العنيد الطاغى الذي لا يقبل الحق ولا يدعن له .
- أي : وتلك هي قصة قبيلة عاد مع نبيها، كفروا بآيات ربه الدالة على صدق أنبيائه، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متحجر متكبر معاند منهم، بدون تفكير أو تدبر.
- **قال ابن عطية :** قوله تعالى ( **وَعَصَوْا رُسُلَهُ** ) مع أنهم قد عصوا رسولاً واحداً هو هود عليه السلام، للإشارة إلى أن معصيتهم لهذا الرسول كأنها معصية للرسول جميعاً، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة في جوهرها وهي: عبادة الله تعالى وحده، والتقيد بأوامره ونواهيه.
- والإشارة أيضاً إلى ضخامة جرائمهم، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلاً لا رسولاً .
- **قال ابن عطية :** قوله تعالى ( **وَعَصَوْا رُسُلَهُ** ) شناعة عليهم وذلك أن في تكذيب رسول واحد تكذيب سائر الرسل وعصيانهم، إذ النبوات كلها مجمعة على الإيمان بالله والإقرار بربوبيته .
- **وقال القرطبي :** وإنما جمع هاهنا لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كفر بجميع الرسل.
- **وقال ابن عاشور :** لأن تكذيبهم هوداً لم يكن خاصاً بشخصه لأنهم قالوا له ( وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ) فكل رسول جاء بأمر ترك عبادة الأصنام فهم مكذبون به .  
فجميع الأنبياء دعوتهم واحدة. وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك.  
ولذلك من كذب واحداً من الرسل فقد كذب جميع الرسل .  
ولهذا يقول تعالى في كل قصة ( كذبت قوم نوح المرسلين). مع أن قوم نوح لم يأثم إلا نوح.  
وكذلك قال تعالى في عاد ( كذبت عاد المرسلين).

وكذلك في ثمود (كذبت ثمود المرسلين).

( وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ) اللعنة: الطرد بإهانة وتحقير.

أي : أنهم هلكوا متبوعين باللعن والطرده من رحمة الله في الدنيا والآخرة.

أي : أن هذه اللعنة تابعة لهم لا تفارقهم ، كما لا يفارق الظل صاحبه ، ولهذا سمي الظل تابعاً .

( وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ) أي : وتلازمهم يوم القيامة .

( أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ) تسجيل لحقيقة حالهم، ودعاء عليهم بدوام الهلاك، وتأکید لسخط الله عليهم.

أي : ألا إن قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم، ألا سحفاً وبعداً لهم عن رحمة الله، جزاء جحودهم للحق، وإصرارهم على الكفر، واستحبابهم العمى على الهدى.

وتكرير حرف التنبية «ألا» وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم وللحز على الاعتبار والاعتاظ بمآلهم.

● قال بعض العلماء : وهذا تنبيه للكفار أن عاداً كفروا ربهم ، فأهلكهم الله تعالى ، فاحذروا كيلاً يصيبكم بكفركم ، ما أصابهم بكفرهم ، ويقال ( أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ) يعني : ينادي مناد يوم القيامة ، لإظهار حالهم .

الفوائد :

١- التأكيد على التوحيد وأن جميع الرسل دعوتهم التوحيد.

٢- أن من يخلق هو من يستحق أن يُعبَد .

٣- فضل الاستغفار والتوبة وأنها سبب للخيرات وحصول القوة والتمكين .

٤- ما من نبي إلا وجاء قومه ببينة تدل على صدقه .

٥- تحدي هود قومه ، وهذا يدل على قوة ثقته بالله تعالى وتوكله عليه .

٦- وجوب التوكل على الله .

٧- أن الأنبياء أعظم الناس توكلأً على ربهم .

٨- وجوب البراءة من الشرك وأهله .

٨- لا أحد يستطيع أن يخرج عن قهر الله وقوته وسلطانه .

٩- أن الله لا يظلم أحداً لكمال عدله .

١٠- أن أحكام الله كلها حكمة وعدل ورحمة .

١١- أن الله أهلك عاداً بالريح العقيم .

١٢- أن هلاك الأمم متنوع ، فكل أمة أهلكت بعقوبة تختلف عن الأخرى لحكمة يريد بها الله.

كما قال تعالى (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَفْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

١٣ - أن الريح من جنود الله تسير بأمر الله، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) وقال تعالى (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ).

والرياح: لمن تأملها تدل على قدرة الله وعظيم تدبيره وتصريفه، فمنها ما يكون لنا سهلاً لطيفاً تنعم به الأجسام ومنها ما يكون عنيفاً شديداً يدمر كل شيء كريح عاد (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ)

وسماها بالريح العقيم، فهي لا تلقح السحاب ولا النبات وإنما تستأصل حتى جعلتهم أعجاز نخل خاوية لا تبق ولا تذر. ومنها ما يكون حاراً ومنها ما يكون بارداً، ومنها ما لها صوت ومنها ما لا صوت لها، ومنها ما يهب من جهة المشرق وهي الصبا ومن جهة المغرب وهي الدبور ومنها الجنوب، ومنها ما يأتي بالنصر، كما فعل الله بالمشركين حيث هزمهم بالريح، ومنها ما يسوق السحاب ومنها ما يلحقه، ومنها ما يلحق النبات، فهي أنواع كثيرة جداً.

١٤ - أن الله لا يعاقب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه.

قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا).

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَى).

١٥- من أساليب الدعوة التذكير بالنعم .

الأربعاء: ١٤ رمضان ١٤٣٩هـ

( وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مَرْيَبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ مَتَّبِعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرِ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) .

[ هود : ٦١ - ٦٨ ] .

( وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ) نبياً يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد.

• وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

قال تعالى (وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ).

• قال الرازي: قال أبو عمرو بن العلاء: سميت ثموداً لقلّة مائها من الشمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام وإلى وادي القرى، وقيل سميت ثمود لأنه اسم أبيهم الأكبر وهو ثمود بن عاد بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

عن ابن عمّار قال (مررت مع رسول الله ﷺ على الحجر فقال لنا رسول الله ﷺ لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين خذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم). ثم زجر فأسرع حتى خلقها.

• قال ابن كثير: قوله تعالى (إلى ثمود) وهم الذين كانوا يسكنون مدينتي الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم (أخاهم صالحاً) فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له الخالق الرزق .

( قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ) دعوته عليه السلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين، الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله.

• قال ابن عاشور: يدل على أن ثمود كانوا مشركين، وقد صرح بذلك في آيات سورة هود وغيرها، والظاهر أنهم عبدوا الأصنام التي عبدتها عاد، لأن ثمود وعاداً أبناء نسب واحد، فيشبه أن تكون عقائدهم متماثلة.

( هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ) أي: ابْتَدَأَ خَلَقَكُمْ مِنْهَا، مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا أَبَائَكُمْ آدَمَ .

كما قال تعالى ( هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ) يعني أباهم آدم، الذي هو أصلهم، ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغرب.  
كما قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) وقال تعالى (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وقال تعالى (والله خلقكم من تراب) أي: ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب.

وقال تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين) يعني خلق أبا البشر آدم من طين.

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وقال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ).

وجاء في السنة ما يؤيد هذا: قال ﷺ (الناس بنو آدم ، وآدم من تراب).

وقد أمر الله عباده أن ينظروا في هذا الخلق الهائل كما قال تعالى ( فلينظر الإنسان مما خلق ) .

فالذي خلق الإنسان وجميع الأشياء هو المستحق للعبادة .

وقد نبه تعالى على ذلك في سورة الزمر :

قال تعالى ( خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ) .

وقد رد الله على الذين ينكرون البعث بأنه أوجدهم من نطفة، ثم طور خلقهم حتى صاروا شيوخاً، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر.  
قال تعالى ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُغُنَّ أَشَدَّهُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ) .

فالذي خلق الإنسان هذا الخلق وطوره هذا التطوير لا يعجزه أن يبعثه يوم القيامة من جديد ، وهو وحده الذي يستحق العبادة  
وقد احتج نوح على قومه بهذا الخلق العجيب وتلك الأطوار المدهشة لذوي الأبواب ، كما قال تعالى ( مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ) .

( وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ) قولان للعلماء :

الأول : أي جعلكم عمارها وسكانها .

والثاني : من العمر ، والمعنى أطال الله أعماركم فيها .

ويدل للأول قوله تعالى ( ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ) .

( فَاسْتَغْفِرُوهُ ) لسالف ذنوبكم .

( ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ ) فيما تستقبلونه .

( إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ) أي : إن استغفرتوه ورجعتم إليه .

كَمَا قَالَ تَعَالَى ( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ) .

● قال الشنقيطي : ذكر في هذه الآية أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا قَرِيبٌ يُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي وَبَيَّنَّ فِي آيَةٍ أُخْرَى تَعْلِيْقَ ذَلِكَ عَلَى مَشِيئَتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَهِيَ قَوْلُهُ (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِِنْ شَاءَ) .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : التَّعْلِيْقُ بِالْمَشِيئَةِ فِي دُعَاءِ الْكُفَّارِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ سِيَاقِ الْآيَةِ ، وَالْوَعْدُ الْمَطْلُوقُ فِي دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَلَيْهِ

فَدَعَاؤُهُمْ لَا يُرَدُّ ، إِمَّا أَنْ يُعْطُوا مَا سَأَلُوا أَوْ يُدْخَرَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُ أَوْ يُدْفَعَ عَنْهُمْ مِنَ السُّوءِ بِقُدْرِهِ .  
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِالِدُعَاءِ الْعِبَادَةُ ، وَبِالْإِجَابَةِ التَّوَابُ ، وَعَلَيْهِ فَلَا إِشْكَالَ .

( قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ) يَذْكُرُ تَعَالَى مَا كَانَ مِنَ الْكَلَامِ بَيْنَ صَالِحِ العليه وَبَيْنَ قَوْمِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالْعِنَادِ فِي قَوْلِهِمْ : ( قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ) أَي : كُنَّا نَرْجُوكَ فِي عَقْلِكَ قَبْلَ أَنْ تَقُولَ مَا قُلْتَ !

● قال ابن عطية : ( مرجوًّا ) معناه : مسودًّا ؛ نؤمل فيك أن تكون سيِّداً ساداً مسدّاً الأكاير .

● وقال القرطبي : أي كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً قبل هذا ؛ أي قبل دعوتك النبوة .

● قال في التفسير الوسيط : أي قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم: يا صالح لقد كنت فينا رجلاً فاضلاً نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك.. قبل أن تقول ما قلته، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك، وصرت في رأينا رجلاً مختل التفكير .

( أَتْنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ) أي : أجتئنا بدعوتك الجديدة لتنهانا عن عبادة الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا من قبلنا؟ لا، إننا لن نستجيب لك، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين وإننا على آثارهم نسير .

( وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ) أي : لن نترك عبادة الأصنام التي كان يعبدها آباؤنا، وإننا لفي شك كبير، ورب عظيم من صحة ما تدعوننا إليه .

( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ) أي : قال صالح العليه لقومه: يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي ومالك أمري .

( وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ) أي : وأعطاني من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارني لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته .

( فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ) أي : إذا كان الله تعالى قد منحني كل هذه النعم، وأمرني بأن أبلغكم دعوته فمن ذا الذي يجيرني ويعصمني من غضبه، إذا أنا خالفت أمره أو قصرت في تبليغ دعوته، احتفاظاً برحائكم في، ومسايرة لكم في باطلكم؟ لا، إنني سأستمر في تبليغ ما أرسلت به إليكم، ولن يمنعني عن ذلك ترغيبكم أو تهيبكم .

( فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ) أي : فما تزيدونني بطاعتكم ومعصية ربي غير الوقوع في الخسران، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه وحاشاي أن أخالف أمر ربي إرضاء لكم .

( وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ ) أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة .

● وكانوا هم الذين سألو صالحاً أن يأتيهم بآية .

قال تعالى عنهم أنهم قالوا (فأتنا بآية إن كنت من الصادقين).

وفي سورة الشعراء (فأت بآية إن كنت من الصادقين).

وقال تعالى (وأتينا نمود الناقة مبصرة فظلموا بها).

أي : أن قوم ثمود طلبوا من صالح آية ناقة تخرج من صخرة عینوها، فدعا صالح العليه ربه فأخرج لهم منها ناقة على ما سألوا .

● مبصرة: أي أن هذه الآية مبصرة: أي بينة تجعلهم يبصرون الحق واضحاً لا لبس فيه، دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها .

● قال ابن الجوزي: قوله تعالى (لكم آية) أي: علامة تدل على قدرة الله؛ وإنما قال (لكم) لأنهم هم الذين اقترحوها، وإن كانت آية لهم ولغيرهم .

وفي وجه كونها آية قولان:

أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملساء، فتمخّضت بما تمخّضَ الحامل، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها.  
والثاني: أنها كانت تشرب ماء الوادي كله في يوم، وتسقيهم اللبن مكانه.

( فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ ) فلا عليكم من مئونها شيء .

• قال القرطبي: قوله تعالى ( فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ ) أي ليس عليكم رزقها ومؤونتها.

• وقال أبو حيان: قوله تعالى ( فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ ) لما أضاف الناقة إلى الله أضاف محل رعيها إلى الله، إذ الأرض وما أنبت فيها ملكه تعالى لا ملككم ولا إنباتكم، وفي هذا الكلام إشارة إلى أن هذه الناقة نعمة من الله ينال خيرها من غير مشقة تكلف علف ولا طعمة، وهو شأن الإبل كما جاء في الحديث قال فضالة الإبل، قال مالك: ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها.

( وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ ) أي: بعقر أو غيره ، فلا تتعرضوا لها لا بضرب ولا بعقر ولا بغيرهما ، بل اتركوها ترعى وتستقي من فضل الله عليها وعلبيكم .

• قال الألوسي: قوله تعالى ( وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ ) نهي عن المس الذي هو مقدمة الإصابة بالشر الشامل لأنواع الأذى مبالغة في الزجر فهو كقوله تعالى ( وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ) .

والتنكير للتعميم أي لا تعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً كالطرد والعقر وغير ذلك. انتهى.

• قال ابن كثير: قوله تعالى ( نَاقَةٌ لِلَّهِ ) قال ابن كثير: أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم كقوله: بيت الله.

( فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ) جواب النهي ، أي : قريب من عقربها ، وذلك ثلاثة أيام .

• ولعل الداعي لصالح لنهيهم عن التعرض لها مع أنهم لم يُظهروا ما يدل على ذلك : هو معرفة نبي الله صالح عليه السلام أن القوم متمردون مصرون على كفرهم ، وذلك قد يدفعهم إلى قتلها ، لأنها آية دالة على صدقه وحجة قائمة عليهم ، وهم خصوم له ولدعوته ، والخصم لا يجب ظهور حجة خصمه .

( فَعَقَرُوهَا ) أي: نحروا الناقة .

كما قال تعالى ( فَعَقَرُوهَا فَقَالَ لَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ ) .

وقال تعالى في سورة الشعراء ( فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ) .

وقد قالوا أيضاً كما في سورة الأعراف ( وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ) أي: جئنا يا صالح بما تعدنا من العذاب الذي تخوفنا به، إن كنت حقاً رسولاً، قالوا ذلك استهزاء به وتعجيزاً.

• قال ابن كثير: فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه:

منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين: أحدهما: الشرط عليهم في قوله [ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب]، والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه .

• الذي تولى قتلها منهم، هو قدار بن سالف.

قال تعالى ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ( ١١ ) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ( ١٢ ) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ( ١٣ ) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ( ١٤ ) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ( ١٥ ) ) .

• قال الشيخ السعدي:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) أي: بسبب طغيانها.

(إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا) أي: أشقى القبيلة وهو قدار بن سالف لعقرها حين اتفقوا على ذلك.

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ) صالح عليه السلام مخذراً:

(نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) أي احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها.

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ) أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم فأصبحوا جائعين على ركبهم لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

● فإن قال قائل: لماذا قال (فعقروها) مع أن الذي تولى عقرها واحد؟

● قال القرطبي: إنما اضيف العقر إلى الكل، لأنه كان برضى الباقين.

● وقال ابن كثير: وكان الذي تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم، فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم.

● وقال الرازي: واعلم أنه أسند العقر إلى جميعهم، لأنه كان برضاهم مع أنه ما باشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة العظيمة: أنتم فعلتم كذا مع أنه ما فعله إلا واحد منهم.

● وقال ابن عاشور: ومقصدهم من نيتهم إهلاك الناقة أن يزيلوا آية صالح عليه السلام لئلا يزيد عدد المؤمنين به، لأن مشاهدة آية نبوته سالمة بينهم تثير في نفوس كثير منهم الاستدلال على صدقه والاستئناس لذلك بسكوت كبرائهم وتقريرهم لها على مرعاها وشربها، ولأن في اعتدائهم عليها إيذاناً منهم بتحفظهم للإضرار بصالح عليه السلام وبمن آمن به بعد ذلك وليؤروا صالحاً عليه السلام أنهم مستحقون بوعيده إذ قال لهم (ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم).

(فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ) أي: فالهم صالح لما عقروها ما أخبر تعالى عنه أنه قال (فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرَ مَكْدُوبٍ).

● قال ابن كثير: وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام، وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة، وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه - عياداً بالله من ذلك - لا يدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب، وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وأزهقت النفوس في ساعة واحدة [فأصبحوا في دارهم جائعين] أي صرعى لا أرواح فيهم.

( فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ) وقال تعالى في سورة الأعراف ( فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنِّي وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ) قال ابن كثير: هذا تقرير من صالح عليه السلام لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإيائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم، تقريراً وتوبيخاً.

● قوله تعالى: (فتولى عنهم) فيه قولان:

الأول: أنه تولى عنهم بعد أن ماتوا.

والدليل عليه أنه تعالى قال (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ) والفاء تدل على التعقيب، فدل على أنه حصل هذا التولي بعد جثومهم.

● قال السمرقندي: ويقال: إنما قال ذلك بعد إهلاكهم، قال على وجه الحزن، إني قد أبلغتكم الرسالة.

والثاني: أنه عليه السلام تولى عنهم قبل موتهم.

بدليل: أنه خاطب القوم (وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ) وذلك يدل على كونهم أحياء من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قال لهم (يا قوم) والأموات لا يوصفون بالقوم، لأن اشتقاق لفظ القوم من الاستقلال بالقيام، وذلك في حق الميت مفقود.

والثاني: أن هذه الكلمات خطاب مع أولئك وخطاب الميت لا يجوز.

والثالث: أنه قال (ولكن لا تحبون الناصحين) فيجب أن يكونوا بحيث يصح حصول المحبة فيهم.

( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ ) القادر الذي لا يعجزه شيء .

وقد وصف الله - عز وجل - نفسه بِالْقُوَّةِ فَقَالَ تَعَالَى ( إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ) ، فالقوة لله جميعاً، يقهر من يشاء، ويذل من يشاء، وينصر من يشاء ويرزق من يشاء ويعز من يشاء .

القوي - سبحانه - الذي كتب الغلبة لنفسه ورسله فقال ( كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ إنا وَرُسُلِي إِنْ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ) .

القوي كامل القدرة لا يستولي عليه العجز في حال من الأحوال، الموصوف بالقوة المطلقة، والكمال الدال على قوته وجبروته، فالله تبارك وتعالى القوي، الذي لا يغلبه غالب، ولا يرد قضاءه راد، الذي ينفذ أمره وقضاؤه، لا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، ولا يفوته هارب؛ الذي قهر جميع المخلوقات، ودانت له الخلائق، وخضعت له جميع الكائنات، وامتنع أن يناله أحد من المخلوقات.

وفي القرآن نجد أن الله قد قرن اسم القوي باسمين مخصوصين تتكامل بهما معاني ودلالات اسم الله القوي، هذا الاسمان هما: العزيز والمتين، فكثيراً ما يقترن اسم الله القوي باسمه العزيز؛ لأن قوته عن عزة وغنى، فالقوة دائماً تتبعها مصلحة، وأصحاب القوة في العالم إما يجمعون بها أنفسهم، أو يمنحونها لغيرهم طلباً لتبعيةهم وشرأء لذمتهم أو تهديداً لنهب ثرواتهم ومصا لدمائهم، أما القوي الغني عن العالمين، الذي يلفظ بالخلق أجمعين، فقوته عن عزة وقدرة وحكمة .

قال تعالى ( اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ) يطعم ولا يطعم، يرزق ولا يرزق، يجير ولا يجار عليه، لا ملجأ للخلائق منه إلا إليه .

وقال تعالى ( الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ ) .  
( الْعَزِيزُ ) الذي له العزة الكاملة .

( وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ) المراد بالصيحة : صيحة الملك الذي أمره الله تعالى بها لإهلاكهم .

وقال تعالى ( فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ) .

وقال تعالى ( إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِ ) .

قال ابن كثير: أي بادوا عن آخريهم لم تبق منهم باقية وخمدوا وهمدوا كما يهدم يبسس الزرع والنبات.

• وذكر تعالى في آية أخرى أنه أهلكتهم بالرجفة ( فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ) .

• قال الشنقيطي: الرجفة هي الاضطراب الشديد، أي: رجفت بهم الأرض واضطربت اضطراباً شديداً.

ولا منافاة: فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بما جميعاً.

( فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ) أي : ساقطين منكبين على وجوههم لاصقين بالأرض .

( كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ) أي : كأنهم لم يقيموا بها ولم يسكنوا بها .

( أَلَا إِنَّ مَثُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ) الكفر : الستر والتغطية ، وسمي تكذيب الكفار لدعوة الرسل كفرة لما فيه من ستر الحق وإخفائه .

( أَلَا بُعْدًا لِمَثُودٍ ) أي : أبعدهم الله بعداً عن النجاة والسلامة .

## الفوائد :

- ١ - أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة؛ وهي الدعوة إلى توحيد الله وترك الشرك.
- ٢- أن أهل الباطل يبغضون من يدعوهم إلى الحق ويحاول أن يحملهم عليه، فصالح كان محبوباً عندهم قبل أن يدعوهم إلى التوحيد ونبذ الشرك (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْحُوًّا قَبْلَ هَذَا). وهذا فيه دليل على خطر طلب المحمّدة والمنزلة عند الناس، لماذا؟ لان من يطلب ذلك لا بد أن يتنازل عن كثير من أمور الشرع. يتنازل عن توضيحها وبيان تحريمها، لأنه اذا فعل ذلك أبغضوه وهو يريد المنزلة والجاه. صدق من قال: ما صد عن دين الله مثل طلب المحامد.
- قال ﷺ (مَا ذُتْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي عَنَمٍ بِأَقْسَدِ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ). وقد ذكر العلماء: أن من أعظم علامة الزهد استواء المدح والثناء، وأن الإنسان لا يبالي بمدح أو ذم في دين الله.
- ٣- أن الآيات مهما كانت واضحة فإنها لا تهدي القوم المجرمين. كما قال تعالى (وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً) أي واضحة جلية في دلالتها على وحدانية الله تعالى.
- ٤ - ينبغي الوثوق بنصر الله. فقد دمر الله الأمم المكذبة وآبادهم عن آخرهم. قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين).

الخميس: ١٥ رمضان ١٤٣٩هـ

( وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَن يُدْبِرَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَصَحَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ) .

[ هود : ٦٩ - ٧٦ ] .

( وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ) وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ .

( إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ) قِيلَ: تُبَشِّرُهُ بِإِسْحَاقَ .

وَقِيلَ: بِهَلاكِ قَوْمِ لُوطٍ .

وَيَشْهَدُ لِلأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى ( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ) .

• قال الشوكاني : وَالْبُشْرَى الَّتِي بَشَّرُوهُ بِهَا: هِيَ بَشَارَتُهُ بِالوَلَدِ وَقِيلَ: بِإِهْلَاقِ قَوْمِ لُوطٍ، وَالأَوَّلَى أُولَى .

• وقال الشنقيطي : وَلَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْبُشْرَى الَّتِي جَاءَتْ بِهَا رُسُلُ الْمَلَائِكَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بَعْدَ هَذَا إِلَى أَنَّهَا

الْبَشَارَةُ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فِي قَوْلِهِ ( وَامْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَصَحَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ) .

و لِأَنَّ الْبَشَارَةَ بِالذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ شَامِلَةٌ لِلأُمِّ وَالأَبِ ، كَمَا يَدُلُّ لِدَلِكِ قَوْلُهُ ( وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ) .

وَقِيلَ : الْبَشَرَى هِيَ إِخْبَارُهُمْ لَهُ بِأَنَّهُمْ أُرْسِلُوا لِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ .  
 وَعَلَيْهِ فَلَايَاتُ الْمُبَيِّنَةِ لَهَا كَقَوْلِهِ هُنَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ ( قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ) .  
 وَقَوْلِهِ ( قَالُوا إِنَّا أُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ ) .  
 وَقَوْلِهِ ( وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ) .  
**وَالظَّاهِرُ : الْقَوْلُ الْأَوَّلُ .**

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْأَخِيرَةُ تُدُلُّ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا التَّصْرِيحَ بِأَنَّ إِخْبَارَهُمْ بِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَ جِيئِهِمْ بِالْبَشَرَى ؛ لِأَنَّهُ مُرْتَبِّ عَلَيْهِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ الَّتِي هِيَ «لَمَّا» كَمَا تَرَى .

( قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ) أَي : سَلِمُوا عَلَيْهِ ، وَرَدَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

● **قال السعدي :** فصي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد، أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية، الدالة على التحدد، وردة بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

( فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ) أَي : ذَهَبَ سَرِيعًا، فَأَتَاهُمْ بِالضِّيَافَةِ، وَهُوَ عَجَلٌ : فَتَى الْبَقْرِ ، حَنِيذٌ : مَشْوِيٌّ عَلَى الرِّضْفِ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْمِحْمَاةُ .

وقال تعالى في سورة الذاريات ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ( ٢٤ ) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ( ٢٥ ) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ) .

قوله ( فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ) أَي انسل خفية في سرعة ، وهذا من أدب الضيافة ، أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر به الضيف . ( فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ) أَي من خيار ماله ، وفي الآية هنا ( فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ) أَي مشوي على الرضف .

● **قال الشوكاني :** وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ بِعِجْلٍ ، لِأَنَّ الْبَقْرَ كَانَتْ أَكْثَرَ أَمْوَالِهِ .

● **وقال الشنقيطي :** يُؤْخَذُ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ ضَيْفِهِ هَذَا لِأَنَّ أَشْيَاءَ مِنْ آدَابِ الضِّيَافَةِ :

مِنْهَا تَعْجِيلُ الْفَرَى ؛ لِقَوْلِهِ ( فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ) .

وَمِنْهَا كَوْنُ الْفَرَى مِنْ أَحْسَنِ مَا عِنْدَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ ذَكَرُوا أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ الْبَقْرُ وَأَطْيَبُهُ لَحْمًا الْفَرَى السَّمِينُ الْمُنْصِخُ .  
 وَمِنْهَا تَقْرِيبُ الطَّعَامِ إِلَى الضَّيْفِ .

وَمِنْهَا مَلَاظَمَتُهُ بِالْكَلامِ بِعَايَةِ الرِّفْقِ، كَقَوْلِهِ أَلَا تَأْكُلُونَ .

( فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ) وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا هِمَّةَ لَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ وَلَا يَشْتَهُونَهُ وَلَا يَأْكُلُونَهُ؛ فَلِهَذَا رَأَى حَالَهُمْ مُعْرِضِينَ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ، فَارغينَ عَنْهُ بِالْكَلْبَةِ فَعِنْدَ ذَلِكَ نَكِرَهُمْ ( وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ) .

وفي سورة الذاريات ( فَفَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ) .

( قَالُوا ) أَي : الْمَلَائِكَةُ .

( لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ) لِنَهْلِكُهُمْ .

● وكان إبراهيم في فلسطين، وقرية لوط في البحر الميت من الأردن، وهي الآن مغمورة، وكان لوط ابن أخيه كما قيل، وقيل : ابن عمه .

( وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ) أَي : والحال أن امرأته قائمة ، وهي سارة .

( فَضَحَّكَتْ ) ( الرَّاجِحُ أَنْ الْمَرَادَ بِهِ الضَّحْكُ الْمَعْرُوفُ ، وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ .

• قال ابن كثير : فَصَحَّكَتْ سَارَةُ اسْتَبْشَارًا مِنْهَا بِمَلَائِكِهِمْ، لِكَثْرَةِ فَسَادِهِمْ، وَغَلَطَ كَفْرَهُمْ وَعِنَادَهُمْ، فَلِهَذَا جُوزِيَتْ بِالْبَشَارَةِ بِالْوَلَدِ بَعْدَ الْإِيَّاسِ.

وَقَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ قَيْسٍ: إِنَّهَا إِئِمَّا ضَحِكَتْ مِنْ أَنَّهَا ظَنَّتْ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَعْمَلُوا كَمَا يَعْمَلُ قَوْمُ لُوطٍ، وَقَوْلُ الْكَلْبِيِّ إِنَّهَا إِئِمَّا ضَحِكَتْ لِمَا رَأَتْ مِنَ الرَّوْعِ بِإِبْرَاهِيمَ -ضَعِيفَانِ جِدًّا، وَإِنْ كَانَ ابْنُ حَرِيرٍ قَدْ رَوَاهُمَا بِسَنَدِهِ إِلَيْهِمَا، فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

( فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ) ذكر تعالى هنا أن البشارة لسارة ، وذكر في محل آخر أن المبعث إبراهيم ، فكيف ذلك مع أن القصة واحدة ؟

والجواب : أن وجود الولد وحصول السرور به مشترك بينهما فلا منافاة بين أن تبشر به الأم تارة ، ويبشر به الأب أخرى .

• قال ابن كثير : ... مِنْ هَاهُنَا اسْتَدَلَّ مَنْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ، عَلَى أَنَّ الدَّبِيحَ إِئِمَّا هُوَ إِسْمَاعِيلُ، وَأَنَّهُ يُمْتَنَعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْحَاقُ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَتِ الْبِشَارَةُ بِهِ، وَأَنَّهُ سَيُولَدُ لَهُ يَعْقُوبُ، فَكَيْفَ يُؤْمَرُ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِهِ وَهُوَ طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَلَمْ يُولَدْ لَهُ بَعْدُ يَعْقُوبُ الْمَوْعُودُ بِوُجُودِهِ. وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا لَا خُلْفَ فِيهِ، فَيُمْتَنَعُ أَنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِ هَذَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هُوَ إِسْمَاعِيلُ وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْاسْتِدْلَالِ وَأَصَحِّهِ وَأَبْيَنِهِ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ.

• وقال الشنقيطي : قوله تعالى (وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَصَحَّكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) لِأَنَّ رُسُلَ اللَّهِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ بَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ، وَأَنَّ إِسْحَاقَ يَلِدُ يَعْقُوبَ ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يُؤْمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِهِ ، وَهُوَ صَغِيرٌ ، وَهُوَ عِنْدَهُ عِلْمٌ يَقِينٌ بِأَنَّهُ يَعْيشُ حَتَّى يَلِدَ يَعْقُوبَ .

والموضع الثاني في سورة الصافات ، بيّن فيه بياناً شافياً أن الذبيح إسماعيل .

فإنه بعد أن ذكر أنه أمره بذبح ولده الذي بلغ معه السعي ، وأنه فداه ، ذكر بعد ذلك أنه بشره بإسحاق ، أي : أنه يولد له إسحاق ، ولو كان موجوداً من قبل لما حصلت البشرية .

قال تعالى ( فَبَشَّرْنَاَهُ بِعِلَاقِ حَلِيمِ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ) .

( قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ) كما حكى فعلها في الذاريات ( فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ) كما جرّت به عادة النساء في أقوالهنّ وأفعالهنّ عند التعجب .

( فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ) أي في صرخة عظيمة ورنه . ( فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ) أي ضربت يديها على جبينها على عادة النساء عند التعجب . ( وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ) أي كيف ألد وأنا عجوز ، وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل .

( إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ) وكان تعجبها لأمر :

الأول : أنها عجوز ، كما في هذه الآية .

الثاني : أنها كانت عقيماً ، كما في آية الذاريات .

الثالث : أن زوجها كان شيخاً لا يولد لمثله عادة .

( قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ) أي: قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهَا، لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ: "كُنْ" فَيَكُونُ،

فَلَا تَعْجَبِي مِنْ هَذَا، وَإِنْ كُنْتِ عَجُوزًا كَبِيرَةً عَقِيمًا، وَبَعْلُكِ وَهُوَ زَوْجُهَا الْحَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

ففي قصة أصحاب الكهف ( أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ) .

ومعناه : يقول لنبية ﷺ : إن قصة أصحاب الكهف وإن استعظمها الناس وعجبوا منها ، فليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرتنا وعظيم صنعنا ، فإن خلقنا للسموات والأرض وجعلنا ما على الأرض زينة لها ، وجعلنا إياها بعد ذلك صعيداً جزراً — أعظم وأعجب مما فعلنا بأصحاب الكهف ، ومن كوننا أمتناهم هذا الزمن الطويل ، ثم بعثناهم .

وقال تعالى لمريم حين استبعدت أن تولد بدون زوج ( قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ) .

وقال تعالى لزرعيا عندما استبعد أن يكون له ولد من امرأة عاقر مع كبر سنه هو ( قَالَ رَبِّ انِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ) .

وفي سورة آل عمران ( قَالَ رَبِّ انِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ) .

( رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ) هذه تحية من الملائكة على أهل بيت إبراهيم .

والبركات جمع بركة : وهي شاملة للخيرات الدنيوية والأخروية .

( إِنَّهُ حَمِيدٌ ) الحميد : هو المحمود الذي استحق الحمد بأفعاله .

● وقال ابن كثير : أي : المحمود في جميع أفعاله وأقواله وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .

● وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : الصحيح أنها بمعنى المحمود والحمد ، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق الحمد ، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله ، وهو كذلك محمود على كمال صفاته ، وتمام إنعامه .

( مَجِيدٌ ) من الجد ، وهو العلو والرفعة والشرف .

● قال السعدي : الجد : هو عظمة الصفات وسعتها ، فله صفات الكمال ، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها .

● الجيد هو الكبير العظيم، الموصوف بصفات الجود والكبرياء، والعظمت والجلال، الذي هو أكبر وأجل وأعلم وأعظم من كل شيء، وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه. الشريف ذاته، الجميل أفعاله، الجزيل عطاؤه وثوابه.

● والله يحمد على مجده وعظمته وكبريائه .

( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ) اعلم أن الروع هو الخوف وهو ما أوجس من الخيفة حين أنكر أضيافه والمعنى : أنه لما زال الخوف وحصل السرور بسبب مجيء البشري بحصول الولد ، أخذ يجادلنا في قوم لوط .

● والرُّوع بضم الراء النفس ، ومنه قولهم ألقى في روعي أي في نفسي .

( يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ) لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا مَا جَادَلَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ الْمَلَائِكَةَ فِي قَوْمِ لُوطٍ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي «الْعُنْكَبُوتِ» بِقَوْلِهِ ( قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ) .

فَحَاصِلُ جِدَالِهِ لَهُمْ أَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ أَهْلَكُتُمْ الْقَرْيَةَ وَفِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَكُتُمْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ بِعَبْرٍ ذَنْبٍ، فَأَجَابُوهُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمْ ( نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ) .

● قال الخازن : وقال جمهور المفسرين : معناه يجادل رسلنا في قوم لوط وكانت مجادلة إبراهيم مع الملائكة أن قال لهم أرايتم لو كان في مدائن قوم لوط خمسون رجلاً من المؤمنين أهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا قال فما زال كذلك حتى بلغ خمسة قالوا لا قال أرايتم لو كان فيها رجل واحد مسلم أهلكونها قالوا لا قال إبراهيم فإن فيها لوطاً قالوا

نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا أمرته كانت من الغابرين وقيل إنما طلب إبراهيم تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون أو يرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي .

- وخير ما يفسر به القرآن .
- وقوله (يُجَادِلُنَا) أضاف سبحانه المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره تعالى، فمجادلة إبراهيم لهم هي مجادلة في تنفيذ أمره تعالى .
- وقال سبحانه يُجَادِلُنَا مع أنها كانت في الماضي، لتصوير هذه الحالة في الذهن تصويراً حاضراً، حتى تزداد منه العبرة والعظة .
- ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ) ثناء على إبراهيم عليه السلام .
- صفات إبراهيم عليه السلام :

#### الصفة الأولى: أمة.

قال تعالى ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ) .

قيل معناها هنا: الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس ، وهذا هو المقصود في حق إبراهيم ، وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق .

وقيل أن المقصود بالأمة هنا: أي الإمام ، أي قدوة يقتدى به في الخير ، ومن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير .

#### الصفة الثانية: قانت.

قال تعالى ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ) .

والقنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع .

#### الصفة الثالثة: حنيفاً.

والحنيف: الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنيف: المائل والحنف: ضده. والأحنف: مَنْ في رحله ميل سمي بذلك تفاعلاً ، وقيل مجرد الميل. قال ابن كثير: الحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد. وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُددَ إمام الحنفاء

الموحدين ، قال تعالى: [وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] ، وقال: [وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ] ، وهكذا فليكن أولياء الله.

#### الصفة الرابعة: شاكراً.

قال تعالى ( شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ) أي قائماً بشكر نعم الله عليه .

نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة. بالقلب ، قال تعالى ( وَمَا يَكُومُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ) .

وباللسان ، قال تعالى ( وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ) .

وبالجوارح ، قال تعالى ( اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ) .

#### الصفة الخامسة: الحلم.

قال تعالى ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ) .

وهي صفة تقتضي الصفح واحتمال الأذى .

والحلم: ضبط النفس والطبع عن الميحان عند الاستثارة. والحليم: الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه (لَأَزِجَنَّكَ) .

ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بما أمرت بها قال ( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ \* إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ) .

ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ).

#### الصفة السادسة: أوَاه.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ).

والذي يتحقق من معنى الأواه أنه الخاشع الدعاء المتضرع ، وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه قد ذكرت في آيات كثيرة تدل على تحقيق إبراهيم (رَبَّنَا عَلَيْنَا نَوَكَلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) وحدير بمن سلك طريق الدعوة أن يجعل تعجيل الإنابة من أبرز سماته ليكسب عون ربه وتسديده ومحبته.

#### الصفة السابعة: السخاء.

قال تعالى (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ \* إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ \* فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ \* فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ).

فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم، ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان، مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه، ولم يعلمهم بذلك بل راح: أي ذهب خفية حتى لا يشعر به، تجاوباً لضيافة ، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيناً للضيفان، وخدمهم بنفسه، فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقرهم إليه، وتلطف مبالغة في الإكرام فقال (أَلَا تَأْكُلُونَ).

#### الصفة الثامنة: الصبر.

كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا ﷺ أن يصبر كصبرهم (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ).

وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة ، سيأتي بيان جملة منها بإذن الله.

#### الصفة التاسعة: شجاعته.

واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ) وقوله لهم (أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...).

#### الصفة العاشرة: تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء.

قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ. إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ).

فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه ، وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ...).

#### الصفة الحادية عشرة: سلامة القلب.

قال تعالى (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ \* إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

وسلامة القلب نوعان: كلاهما داخل في مضمون الآية، أحدهما: في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك، وإخلاصه العبودية لله، وصدق التوكل عليه. والثاني: في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم ، وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك.

وقد أثنى الله على إبراهيم بقوله ( وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ) .

فإبراهيم أخذ ولده إلى المذبح والاستعداد التام لذبحه ، طاعة لأمر الله سبحانه .  
 وأسكن الزوج والولد في واد غير ذي زرع بمكة ، حيث لم يسكن فيه إنسان .  
 ونهض بوجه عبدة الأصنام وتحطيم الأصنام ، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية ، ثم إلقاءه في وسط النيران ، وثباته  
 ورياسة جأشه في كل هذه المراحل .

وهاجر من أرض عبدة الأصنام والابتعاد عن الوطن ، والاتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته .  
 ( فَأَتَمَّهُنَّ ) أي : قام بهن؛ أي قام بهن كلهن، وأداهن أحسن تأدية من غير تفريط ولا توان كما قال تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)  
 أي وفَّى جميع ما شرع له ، فعمل به صلوات الله عليه .

● وثناء الله على شخص فيه فوائد :

الأولى : لنقوم بالثناء عليه .

والثانية : لنقتدي به .

والثالثة : لنحبه في الله .

( يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ) أي: قالت الملائكة لإبراهيم: يا إبراهيم  
 أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الجدل في أمر قوم لوط، وفي طلب إمهال عقوبتهم إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بإهلاكهم وَإِنَّهُمْ بسبب إصرارهم على  
 ارتكاب الفواحش آتِيهِمْ من رهم عذابٌ شديدٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ عنهم لا بسبب الجدل ولا بأى سبب سواه، فإن قضاء الله لا يرد  
 عن القوم المجرمين. هذا .

● قال القرطبي : قوله تعالى ( يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ) أي دع عنك الجدل في قوم لوط ( إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ) أي عذابه  
 لهم. ( وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ ) أي نازل بهم. ( عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ) أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع.

الفوائد :

١- استحباب تبشير المسلم .

لأن البشارة مما تسر المسلم وتفرحه .

وقد قال تعالى (فبشرناه بغلام حليم) وقال تعالى (وبشروه بغلام عليم).

وفي قصة توبة كعب بن مالك ( ... ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيَّنَّا أَنَا جَالِسٌ عَلَى  
 الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَّا ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِحٍ أَوْفَى عَلَيَّ سَلَعٍ  
 يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أَبْشِرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ . فَأَذَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ اللَّهِ  
 وَجَلَّ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ  
 أَسْلَمَ قَبْلِي ، وَأَوْفَى عَلَيَّ الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ نُؤْيً  
 فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ ، وَاللَّهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ... ) .

٢- الإسراع في إكرام الضيف .

٣- كرم إبراهيم عليه السلام .

٤- من كمال الكرم أن يقرب الطعام للضيف .

٥- إثبات الملائكة .

٦- أن الملائكة جند من جنود الله .

٧- أن الفرع بهلاك الكافر .

٨- أن السلام مشروع، وأنه ينبغي أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم سَلامٌ بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام.

٩- عظم قدرة الله .

١٠- إثبات اسمين من أسماء الله : الحميد ، والمجيد .

١١- ثناء الله العظيم على إبراهيم .

١٢- أن أمر الله إذا جاء لا يرد .

السبت: ١٧ رمضان ١٤٣٩هـ

( وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَنْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا عَلَيْنَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) . [ هود : ٧٧ - ٨٣ ]

( وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ) أي : ولما جاءت ملائكتنا لوطاً ساءه بجيئهم واغتمّ لذلك؛ وذلك لأنه لم يكن يعلم أنهم رسل الله، فخاف عليهم من قومه، وقال: هذا يوم بلاء وشدة. وهؤلاء الملائكة الذين كانوا عند إبراهيم وكانوا على صورة غلمان مرد حسان الوجوه .

● قال الشنقيطي : ذَكَرَ اللَّهُ حَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيَّتَا الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، لَمَّا جَاءَتْهُ رُسُلُ رَبِّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَصَلَتْ لَهُ بِسَبَبِ جِيئِهِمْ مَسَاءَةٌ عَظِيمَةٌ ضَاقَ صَدْرُهُ بِهَا، وَأَشَارَ فِي مَوَاضِعٍ مُتَعَدِّدَةٍ إِلَى أَنَّ سَبَبَ مَسَاءَتِهِ وَكَوْنِهِ ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا، وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ: أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُمْ ضُيُوفٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، كَمَا ظَنَّهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَظَنَّ أَنَّ قَوْمَهُ يَنْتَهِكُونَ حُرْمَةَ ضُيُوفِهِ فَيَفْعَلُونَ بِهِمْ فَاحِشَةَ اللِّوَاطِ ؛ لِأَنَّهُمْ إِنْ عَلِمُوا بِقُدُومِ ضَيْفٍ فَرَحُوا وَاسْتَبَشَرُوا بِهِ لِيَفْعَلُوا بِهِ الْفَاحِشَةَ الْمَذْكُورَةَ .

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ هُنَا ( وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ) .

وَقَوْلُهُ فِي «الْحِجْرِ» ( وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبَشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ) .

● قال ابن عاشور : قوله تعالى ( هذا يوم عصيب ) قاله في نفسه كما يناجي المرء نفسه إذا اشتد عليه أمر. والعصيب : الشديد فيما لا يرضي.

يقال : يوم عصيب إذا حدث فيه أمر عظيم من أحوال الناس أو أحوال الجوّ كشدة البرد وشدة الحرّ.

( وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ) أي : وجاء قوم لوط يسرعون المشي إليه لطلب الفاحشة .

● قَوْلُهُ: يُهْرَعُونَ ، أي: يُسْرِعُونَ وَيُهْرَعُونَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِذَلِكَ .

كما قال تعالى في آية أخرى ( وجاء أهل المدينة يستبشرون ) .

● قال ابن عاشور : وقد طوى القرآن ذكر الغرض الذي جاؤوا لأجله مع الإشارة إليه بقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) فقد صارت لهم دأباً لا يسعون إلا لأجله.

( وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ) أي : كانوا من قبل مجيئهم يأتون الرجال شهوة دون النساء .

وقد ذكر الله تعالى أن قوم لوط كانوا أول من ارتكب هذه الفعلة القبيحة .

قال تعالى (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ) .

وقد كانوا يتجاهرون بها :

قال تعالى في سورة النمل ( وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَٰجِهَلُونَ).

وقال تعالى في سورة العنكبوت (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أَتَيْنِكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ... ) .

● قال ابن عاشور: وجملة (وأنتم تبصرون) حال زيادة في التشنيع، أي تفعلون ذلك علناً يبصر بعضكم بعضاً، فإن التجاهر بالمعصية معصية لأنه يدل على استحسانها وذلك استخفاف بالنواهي.

( قَالَ ) لهم لوط .

( يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ) اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِ لُوطٍ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيَّتَا الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ( هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ) على أقوال :

أَحَدُهَا: أَنَّهُ أَرَادَ الْمُدَافَعَةَ عَنِ ضَيْفِهِ فَقَطُّ، وَمَ يُرِيدُ إِمْضَاءَ مَا قَالَ .  
وَيَحْتَدَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ.

الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِنَاتِهِ لَصْلِبِهِ .

وَأَنَّ الْمَعْنَى: دَعُوا فَاحِشَةَ اللِّوَاطِ وَأَزْوَاجِكُمْ بَنَاتِي، وَعَلَى هَذَا فَتَرْوِيحُ الْكَافِرِ الْمُسْلِمَةَ كَانَ جَائِزًا فِي شَرْعِهِ، كَمَا كَانَتْ بَنَاتُ نَبِيَّتَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحْتَ الْكُفَّارِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ .

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْبَنَاتِ: جَمِيعُ نِسَاءِ قَوْمِهِ .

لِأَنَّ نَبِيَّ الْقَوْمِ أَبٌ دِينِي هُمْ .

كما يدلُّ له قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَبِيَّتَا ﷺ ( النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ) وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ هُمْ» وَرُوِيَ نَحْوَهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهَذَا الْقَوْلِ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ.

قال تعالى عنه أنه قال لهم (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ).

● قال ابن كثير : أي: إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتيهن ( وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ) أي: ليس لنا غرض إلا في الذكور، وأنت تعلم ذلك، فأى حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟

● قال الخازن: وهذا القول هو الصحيح وأشبه بالصواب إن شاء الله تعالى والدليل عليه: أن بنات لوط كانتا اثنتين وليستا بكافيتين للجماعة، وليس من المروءة أن يعرض الرجل بناته على أعدائه ليزوجهن إياهم فكيف يليق ذلك بمنصب الأنبياء أن يعرضوا بناتهم على الكفار.

● وقال الرازي : وهذا القول عندي هو المختار ، ويدل عليه وجوه :

الأول : أن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر متباعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء ؟  
الثاني : وهو أنه قال ( هُوَلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ) فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم .

● وقال ابن عاشور : وقد روي أنه لم يكن له إلا ابنتان ، فالظاهر أن إطلاق البنات هنا من قبيل التشبيه البليغ ، أي هؤلاء نساؤهن كبناتي ، وأراد نساءً من قومه بعدد القوم الذين جاءوا يُهرعون إليه .

وهذا معنى ما فسر به مجاهد ، وابن جبير ، وقتادة ، وهو المناسب لجعلهنّ لقومه إذ قال ( هنّ أطهر لكم ) فإن قومه الذين حضروا عنده كثيرون ، فيكون المعنى : هؤلاء النساء فتزوّجنّهم .

( هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ) أي : أنزه وأنقى .

( فَاتَّقُوا اللَّهَ ) أي : اجعلوا بينكم وبين الله الوقاية بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، بأن توحده ولا تعبدوا غيره ، وتطيعوه فلا ترتكبوا ما نهى عنه من المعاصي ، وبخاصة تلك الفاحشة القبيحة .

( وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ) أي : لَا تُهَيِّنُونِ وَلَا تُدِلُّونِ بِأَنْتِهَآكَ حُرْمَةَ ضَيْفِي .

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : قَوْلُهُ ( وَلَا تُخْزُونِ ) مِنَ الْخِزْيَةِ وَهِيَ الْحَجَلُ وَالِاسْتِحْيَاءُ مِنَ الْقَضِيحَةِ ، أَي لَا تَفْعَلُوا بِضَيْفِي مَا يَكُونُ سَبَبًا فِي خَجَلِي وَاسْتِحْيَائِي .

( أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ) أليس منكم رجل ذو رشد، ينهى من أراد ركوب الفاحشة، فيحول بينهم وبينها، فإهانة الضيف مسبة لا يفعلها إلا أهل السفاهة .

● قال ابن عاشور : قوله : ( منكم ) بمعنى بعضكم أنكر عليهم تمالؤهم على الباطل وانعدام رجل رشيد من بينهم ، وهذا إغراء لهم على التعقل ليظهر فيهم من يتفطن إلى فساد ما هم فيه فينهاهم ، فإنّ ظهور الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم ، وبالعكس تمالؤهم على الباطل يزيدهم ضراوة به .

( قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ) أي : قال قوم لوط له : لقد علمت من قبلك أنه ليس لنا في النساء من حاجة أو رغبة، وإنك لتعلم ما نريد، أي لا نريد إلا الرجال ولا رغبة لنا في نكاح النساء .

( قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ) أي : قال لهم حين أبوا إلا فعل الفاحشة : لو أن لي بكم قوة وأنصاراً معي، أو أركن إلى عشيرة تمنعني منكم، لحلّث بينكم وبين ما تريدون .

● قال النووي : قول النبي ﷺ ( وَيَرْحَمَ اللَّهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ )

فَالْمُرَادُ بِالرُّكْنِ الشَّدِيدِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ الْأَرْكَانِ وَأَقْوَاهَا وَأَمْنَعُهَا وَمَعْنَى الْحَدِيثِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : أَنَّ لُوطًا ﷺ لَمَّا خَافَ عَلَى أَضْيَافِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَشِيرَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ ضَاقَ ذَرْعُهُ وَاشْتَدَّ حُزْنُهُ عَلَيْهِمْ ، فَغَلَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَالِ : " لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ " فِي الدَّفْعِ بِنَفْسِي " أَوْ آوِي " إِلَى عَشِيرَةٍ تَمْنَعُ لَمَنْعَتِكُمْ وَقَصْدُ لُوطٍ ﷺ إِظْهَارَ الْعُدْرَةِ عِنْدَ أَضْيَافِهِ ، وَأَنَّهُ لَوْ اسْتَطَاعَ دَفْعَ الْمَكْرُوهِ عَنْهُمْ بِطَرِيقٍ مَا لَفَعَلَهُ وَأَنَّهُ بَدَلَ وَسْئِهِ فِي إِكْرَامِهِمْ وَالْمُدَافَعَةَ عَنْهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِعْرَاضًا مِنْهُ ﷺ عَنِ الْإِعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنَّمَا كَانَ لَمَّا دُكِرَتْهُ مِنْ تَطْيِيبِ قُلُوبِ الْأَضْيَافِ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَسْبِي الْإِلْتِحَاءِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمَاهِيَّتِهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْتَجَاءً فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَظْهَرَ لِلأَضْيَافِ التَّأَمُّ وَضَيْقَ الصَّدْرِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

( قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ) أي : قالت الملائكة : يا لوط إننا رسل ربك أرسلنا لإهلاك قومك، وإنهم لن يصلوا إليك .

● وَبَيَّنَّ فِي الْقَمْرِ أَنَّهُ تَعَالَى طَمَسَ أَعْيُنَهُمْ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ( وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ) .

( فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ ) أي : فاحرج من هذه القرية أنت وأهلك ببقية من الليل، ولا يلتفت منكم أحد وراءه؛ لئلا يرى العذاب فيصيبه .

● القطع الطائفة من الليل .

● وَمَ يَبَيِّنُ هُنَا هَلْ هُوَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، أَوْ وَسَطِهِ أَوْ أَوَّلِهِ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ فِي «الْقَمَرِ» أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ وَقَتِ السَّحَرِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ ( إِلَّا آلَ لُوطٍ بَحَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ) .

وَمَ يَبَيِّنُ هُنَا أَنَّهُ أَمْرُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَائِهِمْ وَهُمْ أَمَامَهُ، وَلَكِنَّهُ بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي «الْحَجْرِ» بِقَوْلِهِ ( فَأَسْرٍ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَأَتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ) .

● قوله ( بأهلك ) يفهم منه أنه لم يؤمن به إلا أهله .

( إِلَّا أَمْرَاتِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ) قَرَأَهُ جُمُهُورُ الْقُرَّاءِ إِلَّا أَمْرَاتِكَ، بِالنَّصْبِ، وَعَلَيْهِ فَلَا مُرَّ وَاضِحٌ ؛ لِأَنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْأَهْلِ، أَيْ أَسْرٍ بِأَهْلِكَ إِلَّا أَمْرَاتِكَ فَلَا تُسْرٍ بِهَا، وَاتَّزَكَّهَا فِي قَوْمِهَا فَإِنَّهَا هَالِكَةٌ مَعَهُمْ .

وَيَدُلُّ لِهَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ فِيهَا فِي مَوَاضِعَ ( كَانَتْ مِنَ الْعَابِرِينَ ) ، وَالْعَابِرُ: الْبَاقِي، أَيْ مِنَ الْبَاقِينَ فِي الْهَلَاكِ .

ويحتمل أن يكون من قوله (وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتِكَ) أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم .

● قال ابن كثير: والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم .

( إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ) أي : إن موعد هلاكهم الصبح، وهو موعد قريب الحلول .

يذكر أن لوطاً عندما وعده الملائكة بهلاك قومه بقولهم (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ) استعجل نزول العذاب ، فقال لهم : الآن الآن ، فقالوا له : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ .

ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ آيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ مَوْعِدَ إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ وَقَتُ الصُّبْحِ مِنْ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَكَذَلِكَ قَالَ فِي «الْحَجْرِ» فِي قَوْلِهِ: ( وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ) وَزَادَ فِي «الْحَجْرِ» أَنَّ صَبِيحَةَ الْعَذَابِ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ وَقَتَ الْإِشْرَاقِ، وَهُوَ وَقْتُ طُلُوعِ الشَّمْسِ بِقَوْلِهِ ( فَأَخَذْتَهُمُ الصَّبِيحَةَ مُشْرِقِينَ ) .

( فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ (٨٢) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ) هذه كيفية هلاك قوم لوط :

رفع الله قراهم فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منصود .

قال تعالى (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) .

وقال تعالى (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنصُودٍ . مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ) .

وقال تعالى (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ . مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) .

فقوله تعالى (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ) والتحقيق: أن السجيل: أنه الطين؛ لأنَّ الله قال (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ) وخير ما يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ الْقُرْآنُ، إِلَّا أَنَّهُ طِينٌ مَشْوِيُّ النَّارِ، شَدِيدُ الْحَرَارَةِ، لَا يَأْتِي عَلَى شَيْءٍ إِلَّا خَرَقَهُ .

(مَنصُودٍ) أي: مجعول بعضه فوق بعض .

(مسومة) أي: مجعولاً فيها علامة تميزها، قيل: على كل حجر اسم من يرمي به ، وقيل : عليها سيما لا تشاكل حجارة الأرض .

● وصف الله تعالى الحجارة التي رمى بها قوم لوط بثلاثة صفات:

الصفة الأولى: كونها من سجيل .

الصفة الثانية: منضود.

لصفة الثالثة: مسومة.

( وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ) اختلف العلماء في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أي وما هذه القرى المهلكة ببعيدة عن قومك (كفار قريش)، فإنهم يمرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون.

كما قال تعالى ( وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ )

وقال تعالى ( وَإِنَّهَا لَسَبِيلٌ مَّقِيمٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ) .

وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: وَمَا هِيَ رَاجِعٌ إِلَى دِيَارِ قَوْمِ لُوطٍ الْمَفْهُومَةِ مِنَ الْمَقَامِ.

والثاني: الضمير يعود على الحجارة .

أي : وَمَا تِلْكَ الْحِجَارَةُ الَّتِي أَمْطَرْتَ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ بِبَعِيدٍ مِنَ الظَّالِمِينَ لِفَاعِلِينَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ، فَهُوَ تَهْدِيدٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ كَالَّذِي قَبْلَهُ.

وَمِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ) . فَإِنَّ قَوْلَهُ ( وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ) ظَاهِرٌ جَدًّا فِي ذَلِكَ، وَالْآيَاتُ بِنَحْوِ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

الفوائد :

- ١- من آيات الله هلاك المكذبين .
- ٢- تحريم هذه الجريمة القبيحة الخسيسة .
- ٣- سنة الله في قلة من يؤمن مع الأنبياء .
- ٤- جرأة وتمرد هؤلاء على الفساد ، حيث جاؤوا مسرعين للفساد .
- ٥- جرت سنة الله أنه إذا أراد إهلاك قوم نبي عصوه أن يأمره بالخروج والانفصال عنهم، لينجيه ويستأصلهم.
- ٦- أن المرأة الكافرة قد تكون تحت الرجل المؤمن .
- ٧- تهديد لكل ظالم من عقوبة الله .
- ٨- الإشارة إلى أن الإنسان إذا رأى الشيء بعينه كان ذلك أقوى يقيناً مما إذا أخبر به .

الأحد: ١٨ رمضان ١٤٣٩ هـ

( وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَأَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصَيِّبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ (٩٥) . [ هود : ٨٤ - ٩٥ ] .

( وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ) أي: أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، فهو معطوف على قوله (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه).

- واحتلّفوا في مدين فقيل: إنه اسم البلد، وقيل: إنه اسم القبيلة بسبب أنهم أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام، ومدين صار اسماً للقبيلة.
  - وكانت ديار مدين بأرض معانٍ من أطراف الشام مما يلي الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط. وقال بعض أهل العلم: (مدين) اسم بلدة.
  - وَعَلِطَ بعض العلماء وبعض المؤرخين، فزعم أن شعيباً كان بعد موسى، وهذا لا شك أنه غلط؛ لأن شعيباً قبل موسى، وقد دلّت عليه آيات القرآن في سورة الأعراف هذه وغيرها؛ لأن الله في سورة الأعراف هذه لمّا ذكر قصة نوح وقصة هود وصالح ولوط وشعيب مع قومهم قال بعد ذلك في الآيات الآتية (مّمّ بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا) فدلّ على أن بعث موسى بآيات الله بعد هؤلاء الرسل وأممهم، كما هو نص القرآن العظيم. وزعم بعض العلماء أن شعيباً ابن بنت لوط.
- قال بعض العلماء: هو بمن آمن مع إبراهيم لمّا نجا من النار، وهاجر معه. وكُلّها أقوال لا دليل عليها، وغاية ما يفيدُه القرآن: أن الله بعث نبيّه شعيباً إلى أهل مدين. وذكر الله في آياتٍ أُخرى متعدّدة - كما سيأتي في سورة «الحجرات»، وفي سورة «الشعراء»، وفي سورة «ص» وغير ذلك - أن شعيباً أرسل أيضاً إلى أصحاب الأيكة، كما سيأتي في قوله (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) والعلماء مختلفون: هل أصحاب الأيكة هم مدين أنفسهم فيكون شعيب أرسل إلى أمّة واحدة، أو مدين أمّة وأصحاب الأيكة أمّة أُخرى، فيكون شعيب قد أرسل إلى أمّتين؟ هذا خلاف معروف ببن العلماء، وأكثر أهل العلم على أنهم أمّة واحدة كانوا يعبدون أيكة، أي: شجرًا ملثماً، وأن الله سماهم مرّةً بنسبهم (مدين) ومرّةً أضافهم إلى الأيكة التي يعبدونها. وجزم بصحة هذا ابن كثير في تاريخه وتفسيره وممن اشتهر عنه أنهم أمّتان قتاده وجماعة، وهو خلاف معروف.
- والذين قالوا: إنّهما أمّتان قالوا: في (مدين) قال: إنه أخوهم حيث قال (إذ قال لهم شعيب) أما أصحاب الأيكة فلم يثن: إنه أخوهم بل قال (كذب أصحاب الأيكة المرسلين). إذ قال لهم شعيب) ولم يقل: أخوهم شعيب.
- وأجيب عن هذا بأنه لمّا ذكر مدين ذكر الجد الذي يشمل القبيلة ومن جمليتها شعيب، ذكر أنه أخوهم من النسب. أما قوله

(أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ) فمعناه: أنهم يعبدونها، وَلَمَّا ذَكَرَهُمْ فِي مَقَامِ الشَّرِكِ وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ لَمْ يُدْخِلْ مَعَهُمْ شَعِيبًا فِي ذَلِكَ وَهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ. هكذا قاله بعضهم وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

● قال ابن كثير: قوله تعالى (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)).

هؤلاء - أعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال (إذ قال لهم شعيب)، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا. ومن الناس من لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا عليه السلام، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم.

● وقال أيضاً: وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيكة حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة؛ يبخسون المكيال والميزان، ويطفون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقس.

فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فأمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد، وهو الولي الحميد.

● وقد جاءهم ببينة. كما قال تعالى في سورة الأعراف (قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: قد أقام الله الحجج والبيانات على صدق ما جئتكم به.

● المراد بالبينة ههنا المعجزة، لأنه لا بد لمدعي النبوة منها، وإلا لكان متنبئاً لا نبياً، فهذه الآية دلت على أنه حصلت له معجزة دالة على صدقه.

● قال الألوسي: قوله تعالى (قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) أي: معجزة عظيمة ظاهرة من مالك أموركم.

ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا ﷺ والأنبياء عليهم السلام فيه، والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط لأن الغاء في قوله سبحانه (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ) لترتيب الأمر على مجيء البينة، واحتمال كونها عاطفة على (اعبدوا) بعيد، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس.

( قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ) تقدم .

( وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ) المكيال والميزان: اسمان للآلة التي يكال بها ويوزن.

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين:

أحدهما: أن يكون الاستنقص من جهة غيرهم إذا باعوا لغيرهم.

وثانيهما: أن يكون الاستنقص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم.

فكانه عليه السلام يقول لهم: لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم، ولا تأخذوا منه أكثر من حقه إذا اشتريتم.

وإلى هذين الأمرين أشار قوله تعالى ( وَيَلِّ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ ) .

( إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بَخِيلٌ ) أي: أخلصوا لله عبادتكم، والتزموا العدل في معاملاتكم، فإني أراكم تملكون الوفير من المال، وتعيشون في رغد من العيش، وفي بسطة من الرزق، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لوابها وهو الله تعالى

وأن يستعملها استعمالاً يرضيه، وأن يعطى كل ذي حق حقه.

- فالمراد بالخير هنا : المال الكثير ، والثروات الطائلة التي لا يحتاجون معها إلى التعدي إلى حقوق الناس .
- ويطلق الخير على المال كثيراً .

كما قال تعالى ( كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ... ) .

وقال تعالى ( يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ) .

( وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ) أي : وإني أخاف عليكم -إن تماديتم على الكفر بالله ، والإضرار بالناس- عذاب يوم يحيط بكم.

والإحاطة : الإحداق ، أي : أن يحدق بكم العذاب من جميع الجوانب حتى لا يستطيع أن يفر منه فار .  
وقيل : إنه كناية عن الهلاك .

كقوله ( وأحيط بشمره ) .

- وإنما أسند الإحاطة إلى اليوم ، لأن العرب تسند الهول إلى ظرفه ، وهو موجود في القرآن .

كما قال تعالى ( فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً

( وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ) أي: فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة.

فالإيفاء : الإكمال والإتمام ، أي : كيلوا كيلاً وافياً ، وزنوا وزناً وافياً ، ولا تنقصوا إن كلتم ، ولا تزيدوا إن اكتلتم .

قال تعالى في سورة الشعراء (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) قال ابن كثير: يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ) أي: إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصاً، وتأخذوه -إذا كان لكم -تاماً وافياً، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

وقال تعالى (وَيْلٌٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ)

(ويل للمطففين) أي هلاك وعذاب ودمار، لأولئك الفجار الذين ينقصون المكيال والميزان، ثم بين أوصافهم القبيحة بقوله (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون) أي إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه وافياً كاملاً لأنفسهم (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم، ينقصون الكيل والوزن.

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) أي: ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما جرى بينكم وبينهم من معاملات. يقال: بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه. وظلمه فيه «وتبخسوا» تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثاني أشياءهم.

وفائدة التصريح بالنهاى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده.

( وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ ) أي: لا تعملوا بالمعاصي بعد إصلاحها ببعثة الرسل.

( بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) أي : ما يبقيه الله لكم من رزق حلال، ومن حال صالح، ومن ذكر حسن، ومن أمن وبركة في حياتكم ... بسبب التزامكم بالقسط في معاملاتكم، هو خير لكم من المال الكثير الذي تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم.

( وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ) أي : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها، وأجازيكم بها الجزاء الذي تستحقونه ، وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرني ربي بتبليغه، وهو وحده سبحانه الذي سيتولى مجازاتكم.



لَا تَنْهَ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ ... عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ  
وَقَدْ أَحَادَ مَنْ قَالَ:

وَعَبْرٌ تَقِيَّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ مَرِيضٌ  
وَمَعْلُومٌ أَنَّ عَمَلَ الْإِنْسَانِ بِمَا يَنْصَحُ بِهِ غَيْرُهُ أَدْعَى لِقَبُولِ غَيْرِهِ مِنْهُ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:  
فَإِنَّكَ إِذْ مَا تَأْتِ مَا أَنْتَ أَمْرٌ ... بِهِ تَلْفَ مَنْ إِيَّاهُ تَأْمُرُ آتِيَا

( إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ) أي: فيما أمركم وأنهاكم، إنما مرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي .

وهذا يدل على شدة اعتماد الرسل عليهم السلام على ربه تعالى .

( وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ) أي: في إصابة الحق فيما أريده ، ومحاولة إصلاحكم .

( عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ) في جميع أموري .

والتوكل إسناد الأمور وتفويضها إلى الله، مع العلم أنه لا يقع من الخير إلا ما شاء الله، ولا يصيب العبد من الشر إلا ما كتب.

• والتوكل لا ينافي فعل الأسباب.

قال تعالى ( وَهَزَيْتَنِي يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ).

ومن أوضح الأدلة قول يعقوب ( وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ).

( يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ ) محافظة عليهم من العين ثم قال ( وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ).

فقد أخذ بالسبب والحيلة، وصرح بان الاعتماد على الله وحده.

قال ابن القيم أيضاً: فعلى حسن ظنك بربك ورحائك له، يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

التحقيق: أن حسن الظن به يدعو إلى التوكل عليه إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنه به، ولا التوكل على من لا يرجوه.

قال شيخ الإسلام: وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى ( وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ).

وقال: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله.

وقال بعض العارفين: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه.

وقال ابن القيم - رحمه الله - ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

( وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ) أي: أرجع إلى الله وأتوب إليه .

( وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ) أي: لا تحملنكم عداوتي

وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط من النعمة والعذاب.

• ( أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ) بالغرق ( أَوْ قَوْمَ هُودٍ ) بالريح ( أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ) بالصيحة . ( وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ

بِعَجِيدٍ ) أي: فيصيبكم ما أصابهم من قلب قراكم ورميكم بالحجارة .

• قال البقاعي: ( لا يجرمنكم ) أي يحملنكم ( شقاعي ) أي شقاقكم لي على ( أن يصيبكم ) من العذاب ( مثل ما ) أي العذاب

الذي ( أصاب قوم نوح ) بعد طول أعمارهم وتنائي أقطارهم ( أو قوم هود ) على شدة أبدانهم وتماذي أماتهم ( أو قوم صالح )

مع نحتهم البيوت من الصخور وتشبيدهم عوالي القصور.

ولما كان للمقارنة أثر المشاكلة والمناسبة ، غير الأسلوب تعظيماً للتهويل فقال : (وما قوم لوط) أي على قبح أعمالهم وسوء حالهم وقوة أخذهم ووبالهم (منكم ببعيد) أي لا في الزمان ولا في المكان فأنتم أحدر الناس بذكر حالهم للاتعاظ بما .  
( وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ) في تفسيرها قولان :

قيل : المراد بعد المكان ، أي : وليست ديارهم ببعيدة منكم ، بل هي قريبة .  
كما قال تعالى ( وإنكم لتمررون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ) .  
وقيل : المراد بعد الزمان .

كما قال قتادة في قوله: ( وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ) يعني إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس .  
والمراد من ذلك على كلا الوجهين تحذيرهم أن يقع بهم ما وقع بقوم لوط الذين لا تبعد مساكنهم منهم ، كما أن زمنهم الذي أهلكوا فيه ليس ببعيد كذلك .

● قال الرازي : وأما قوله تعالى ( وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ) ففيه وجهان :

الأول : أن المراد نفي البعد في المكان لأن بلاد قوم لوط عليه السلام قريبة من مدين .  
والثاني : أن المراد نفي البعد في الزمان .

لأن إهلاك قوم لوط عليه السلام أقرب الإهلاكات التي عرفها الناس في زمان شعيب عليه السلام ، وعلى هذين التقديرين فإن القرب في المكان وفي الزمان يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الأحوال فكأنه يقول اعتبروا بأحوالهم واحذروا من مخالفة الله تعالى ومنازعتة حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب .

( وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ) أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة .

( إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ) لمن تاب وأناب .

( وَدُودٌ ) الذي يتودد إلى المخلوقين بما جعلهم يعملون له ويجبونه .

ويجب من أطاعه ، فهو فَعُول بمعنى فاعل .

وكلاهما حق .

قال السعدي : ومعنى الودود، من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين ويجبونه، فهو "فعال" بمعنى "فاعل" وبمعنى "مفعول"

وقال : "الودود" الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويجبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه ودا وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

( قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ) قالوا: يا شعيب

ما نفقه كثيراً مما تقول، وإننا لنراك فينا ضعيفاً لست من الكبراء ولا من الرؤساء،

● نادوه باسمه وقاحة وعدم احترام ، وصرحوا له بعدم فهمهم عنه مع أنه في غاية الفصاحة ، حتى قيل : إنه خطيب الأنبياء ، فتجاهلوا ذلك وزعموا أنهم لا يفهمون كلامه .

● قال الرازي : لقائل أن يقول : أنه عليه السلام كان يخاطبهم بلسانهم ، فلم قالوا ( مَا نَفَقَهُ ) والعلماء ذكروا عنه أنواعاً من

الجوابات :

فالأول : أن المراد : ما نفهم كثيراً مما تقول ، لأنهم كانوا لا يلقون إليه أفهامهم لشدة نفرتهم عن كلامه وهو كقوله ( وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ) .

الثاني : أنهم فهموه بقلوبهم ولكنهم ما أقاموا له وزناً ، فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه إذ لم يعبأ بحديثه : ما أدري ما تقول.

( وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ) أي : لا قوة لك إلى جانب قوتنا، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا.

- ومرادهم : لست أحق منا بهذا الأمر لو كان خيراً ، وهو مثل ما قاله كفار مكة في محمد ( وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ) .

( وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ) أي : ولولا مراعاة عشيرتك لقتلناك رجماً بالحجارة -وكان رهطه من أهل ملتهم-، وليس لك قدر واحترام في نفوسنا.

والمقصود من هذا الكلام أنهم بينوا أنه لا حرمة له عندهم ، ولا وقع له في صدورهم ، وأنهم إنما لم يقتلوه لأجل احترامهم رهطه.

والرهط : المراد بهم جماعته وعشيرته وعصبته الأقربون .

والمراد بالرحم : الرجم بالحجارة ، وهو من أشنع القتل .

وقيل : إن معنى رجمناك : شتمناك ، وقد شتموه حيناً قالوا : ( إنك لأنت الحليم الرشيد ) كما مر أنه سخرية وتحكم .

- والرجم في اللغة عبارة عن الرمي ، وذلك قد يكون بالحجارة عند قصد القتل ، ولما كان هذا الرجم سبباً للقتل لا جرم سماوا القتل رجماً ، وقد يكون بالقول الذي هو القذف ، كقوله ( رَجْمًا بِالْغَيْبِ ) وقوله ( وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) وقد يكون بالشتيم واللعن ، ومنه قوله ( الشيطان الرجيم ) وقد يكون بالطرد كقوله ( رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ) .

( وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعِزِّيزٍ ) أي : وما أنت علينا بمكرم أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجمك، بل أنت فينا الضعيف المكروه .

والعزة تطلق على الغلبة ، وهو إطلاق مشهور ، ومنه قوله تعالى ( ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ) .

وتطلق على النفاسة وقلة الوجود .

ومرادهم هنا : لست بكريم ذا مكانة عندنا .

( قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ) أي : قال: يا قوم أعشيري أعزُّ وأكرم عليكم من الله؟

ونبذتم أمر ربكم فجعلتموه خلف ظهوركم، لا تأتمرون به ولا تنتهون بنهييه .

- قال ابن عاشور : والمراد بالظهري الكناية عن النسيان ، أو الاستعارة لأن الشيء الموضوع بالوراء ينسى لقلة مشاهدته ، فهو يشبه الشيء المجهول خلف الظهر في ذلك .

- قال ابن الجوزي : قوله تعالى ( واتخذتموه وراءكم ) في هاء الكناية قولان : أحدهما : أنها ترجع إلى الله تعالى ، قاله الجمهور . قال الفراء : المعنى : رميتم بأمر الله وراء ظهوركم . قال الزجاج : والعرب تقول لكل من لا يعبأ بأمر : قد جعل فلان هذا الأمر بظهر .

( إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ) أي : إن ربي قد أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

وهذا هو الزاجر الأعظم ، والواعظ الأكبر ، وهو العلم بأن الله رقيب على كل شيء مطلع على كل شيء .

( وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ) أي : ويا قوم اعملوا كل ما تستطيعون على طريقتكم وحالتكم، إني عامل مثابر على طريقتي وما وهبني ربي من دعوتكم إلى التوحيد .

وقوله (عَلَى مَكَانَتِكُمْ) أي : اعملوا على تمكنكم ، أي : اعملوا ما تشاؤون على تمكنكم فإني عامل على تمكني .

( سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ) تهديد شديد .

( وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ) أي : وسوف تعلمون من منا كاذب في قوله، أنا أم أنتم؟

وَأَرْتَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ) تهديد ، والارتقاب من المراقبة ، وهو التريص والانتظار ، وهذا كقول الله عن الرسول ( فتربصوا إنا معكم متربصون ) .

( وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ) تقدم .

( وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ) تقدم .

والهلاك الذي أصاب قوم شعيبٍ ذكر تعالى في الأعرافِ أنه رجفةٌ .

قال تعالى ( فَأَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ ) .

وذكر في هودٍ هنا أنه صيحةٌ ( وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ ) .

وذكر في الشعراءِ أنه عذابٌ يوم الظلَّةِ، قال تعالى ( فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) .

ويكون وقع ذلك كله :

فيكون صاح بهم الملك ، فترزعزت بهم الأرض من الصيحة فرجفت بهم ، ثم جاءت الظلة فأمطرت عليهم النار .

والجواب: ما قاله ابن كثيرٍ رحمه الله في تفسيره قال: وَقَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ أَصَابَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ وَهِيَ سَحَابَةٌ أَظْلَّتْهُمْ فِيهَا شَرٌّ مِنْ نَارٍ وَهَبٍ وَوَهَجٍ عَظِيمٍ، ثُمَّ جَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَرَجْفَةٌ مِنَ الْأَرْضِ شَدِيدَةٌ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ، فَزَهَقَتِ الْأَرْوَاحُ، وَفَاضَتِ النُّفُوسُ، وَخَمَدَتِ الْأَجْسَامُ. اهـ منه.

وقال رحمه الله : وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَصُنُوفًا مِنَ الْمَثَلَاتِ، وَأَشْكَالًا مِنَ الْبَلِيَّاتِ، وَذَلِكَ لِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ قَبِيحِ الصِّفَاتِ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ رَجْفَةً شَدِيدَةً أَسْكَنتِ الْحُرُكَاتِ، وَصَيْحَةً عَظِيمَةً أَمَّحَدَتِ الْأَصْوَاتِ، وَظُلَّةً أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَرَّ النَّارِ مِنْ سَائِرِ أَرْجَائِهَا وَالْجِهَاتِ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَحْبَرَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ سُورَةٍ بِمَا يُنَاسِبُ سِيَاقَهَا وَيُؤَافِقُ طِبَاقَهَا .

في سياقِ قِصَّةِ الْأَعْرَافِ أَرْخَفُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ، وَتَوَعَّدُوهُمْ بِالْإِخْرَاجِ مِنْ قَرْيَتِهِمْ أَوْ لِيَعُودَنَّ فِي مِلَّتِهِمْ رَاجِعِينَ فَقَالَ تَعَالَى: (فَأَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ) . فَقَابَلِ الْإِرْجَافَ بِالرِّجْفَةِ، وَالْإِخَافَةَ بِالْحَيْفَةِ، وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِهَذَا السِّيَاقِ، وَمُتَعَلِّقٌ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ السِّيَاقِ .

وَأَمَّا فِي سُورَةِ هُودٍ فَذَكَرَ أَنَّهُمْ أَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لِنَبِيِّ اللَّهِ عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ وَالْتِنْقِصِ (أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) . فَنَاسَبَ أَنْ يَذْكَرَ الصَّيْحَةَ الَّتِي هِيَ كَالرَّجْرِ عَنْ تَعَاظِي هَذَا الْكَلَامِ الْقَبِيحِ الَّذِي جَهَلُوا بِهِ هَذَا الرَّسُولَ الْكَرِيمَ الْأَمِينَ الْفَصِيحَ فَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَسْكَتَتْهُمْ مَعَ رَجْفَةٍ أَسْكَتَتْهُمْ

وَأَمَّا فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ فَذَكَرَ أَنَّهُ أَخَذَهُمْ (عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) وَكَانَ ذَلِكَ إِجَابَةً لِمَا طَلَبُوا، وَتَقْرِيبًا إِلَى مَا إِلَيْهِ رَغِبُوا فَإِنَّهُمْ قَالُوا (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .

( فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ ) أي: موتى، كل واحد منهم منكب على وجهه لا روح في جسده.

( كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا ) كما قال تعالى في سورة الأعراف (الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا)

أي: كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها.

● قال الخازن: قوله تعالى (الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها) يعني كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوها يوماً من الدهر يقال:

غنيت بالمكان أي أقمت به.

- وقال الشوكاني: ومعنى الآية: الذين كذبوا شعبياً كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب.
- وقال ابن عطية: قوله تعالى (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا) لفظ فيها للإخبار عن قوة هلاكهم ونزول النقمة بهم والتنبية على العبرة بهم.
- وقال الشنقيطي: المعنى: الذين كَذَّبُوا شعبياً دَمَرَهُمُ اللهُ وأهلكهم إهلاكاً مستأصلاً حتى كأنهم لم يقيموا في دارهم يوماً من الدهر أبداً ولم يُوجدوا، والذي زَالَ زَوَالاً كَلِيّاً تقول العرب: كأنه لم يكن يوماً ما.
- ( أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ) أي : ألا هلاكاً مصحوباً بالخزي واللعنة والطرده من رحمة الله لقبيلة مديين، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود.

#### الفوائد :

- ١- التأكيد على أهمية التوحيد.
- ٢- أن لكل نبي آية تدل على صدقه ونبوته.
- ٣- حكمة الله تعالى في عدم ذكر آية نبي الله شعيب.
- ٤- أن بخس المكابيل والموازن خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.
- ٥- أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم، ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقه ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج؛ لهذا قال شعيب لقومه (إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ) أي: بنعم كثيرة، فأمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة.
- ٦- الحث على الرضا بما أعطى الله، والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس.
- ٧- وجوب التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه، وخاصة في نصره الحق ومحاربة أهل الزيغ والفساد .
- ٨- ذم من يأمر الناس بالطاعة والبر ولا يفعل ذلك.
- ٩- فضل الرزق الحلال .
- ١٠- أن منهج الأنبياء هو الإصلاح .
- ١١- أن التوفيق بيد الله .
- ١٢- قوة الأنبياء في الحق وعدم خوفهم من أقوامهم .

الثلاثاء ٢٠ رمضان ١٤٣٩هـ

( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٩) ) .

[ هود : ٩٦ - ٩٩ ] .

- ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) ولقد أرسلنا موسى بأدلتنا على توحيدنا وحجة تبين لمن عاينها وتأملها -بقلب صحيح- أنها تدل على وحدانية الله، وكذب كل من ادعى الربوبية دونه سبحانه وتعالى.
- موسى بن عمران، أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأحد أولي العزم من الرسل.
  - صيغة الجمع في قوله ( ولقد أرسلنا ) للتعظيم .

- والمراد بالآيات: الآيات التسع المشار إليها في قوله تعالى ( ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ) .  
وقال تعالى ( وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ) .  
وهي: العصا، واليد البيضاء، والسنون العجاف، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.  
والسلطان المبين: الحججة الواضحة، والبرهان الظاهر على صدقه، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحججة والبرهان على ما يدعى، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه، كما يقهر السلطان غيره.  
( إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ) أي : أرسلنا موسى إلى فرعون وأكابر أتباعه وأشرف قومه، فكفر فرعون وأمر قومه أن يتبعوه، فأطاعوه، وخالفوا أمر موسى .
- وقوله ( إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ ) خصهم بالذكر مع فرعون، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره، ويعاونونه على فسادهم والضمير في قوله فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ يعود إلى الملأ.  
أي : فاتبعوا أمره في كل ما قرره من كفر، وفي كل ما أشار به من فساد.
- فقد ادعى أنه إلههم من دون الله كما قال تعالى عنه ( وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ) .  
وقال تعالى ( فقال أنا ربكم الأعلى ) .  
وكان قومه ضعفاء العقول ، يتبعون أمره مع وضوح ضلاله وفساده لخفة عقولهم .  
كما قال تعالى ( فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ) .  
( وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ) أي : وليس في أمر فرعون رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، فكان من الواجب على ملئه أن يبنذوه ويهملوه، بدل أن يطيعوه ويتبعوه .  
( يَفْقَهُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ) أي : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم، كما كان يتقدمهم في الكفر في الدنيا، فأوردتهم النار، أي: فدخلها وأدخلهم معه فيها.
- قال القرطبي : قوله تعالى ( فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ) أي أدخلهم فيها ، دُكِرَ بلفظ الماضي ؛ والمعنى فيوردتهم النار ؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن ؛ فلهذا يُعَبَّرُ عن المستقبل بالماضي.  
( وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ) أي: وبئس الورد الذي يردونه النار، لان الورد- الذي هو النصيب المقدر للإنسان من الماء- إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه، وإرواء ظمئه، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التي هي الضد من ذلك.
- والورد- بكسر الواو- يطلق على الماء الذي يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب ، فالورد الشيء الذي يورد .  
( وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بئس الورد المرفود ) أي : وأتبعهم الله في هذه الدنيا مع العذاب الذي عجله لهم فيها من الغرق في البحر لعنة، ويوم القيامة كذلك لعنة أخرى بإدخالهم النار، وبئس ما اجتمع لهم وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.  
كما قال تعالى في آية أخرى ( وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ) .  
والرغد العطاء والعون يقال رغد فلان فلانا يرفده رفا أي أعطاه وأعاناه على قضاء مصالحه، أي: بئس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التي لا يستهم في الدنيا والآخرة.  
وسميت اللعنة رفاً على سبيل التهكم بهم .  
فكأنه سبحانه يقول: هذه اللعنة هي العطاء المعطى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذي يسير خلف قائده بدون تفكير أو تدبر... وبئس العطاء عطاؤه لهم .

وهذا أسلوب عربي، جار على غرار قوله تعالى (وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا).

#### الفوائد :

١- عظمة الله .

٢- إثبات رسالة موسى .

٣- أن موسى كغيره من الأنبياء أعطي من الآيات العظيمة الدالة على صدقه .

٤- ذم من يتبع من لا يعقل ولا يرشد .

٥- أن فرعون كما كان قائداً لقومه في الدنيا في الضلال ، فإنه يكون قائدهم يوم القيامة إلى النار .

٦- أن فرعون وقومه لعنوا في الدنيا وفي الآخرة .

( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيْبٍ (١٠١) ) .  
[ هود : ١٠٠ - ١٠١ ] .

( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ) أي : ذلك الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- في هذه السورة الكريمة، وهو جزء من أنباء القرى المهلكة.

( نقصه عليك ) أي : نخبرك به إخباراً مفصلاً في هذا القرآن عن طريق وحيننا الصادق، ليعتبر به الناس، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذي لا علم لهم به من عند الله .  
● قوله ( أنباء ) جمع نبأ ، وهو الخبر الذي له شأن .

والنبأ أحص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم.  
وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دَلَّتْ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاتهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأولين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ) .

● قال السعدي: قوله تعالى ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ) ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.

● وقال القرطبي: وهي تسلية للنبي عليه السلام والمسلمين.

● والقرى تطلق على الأبنية وعلى الساكنين بها .

( مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ) أي : من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها، كآثار قوم ثمود ، ومنها ما آثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه، فلم تبق منه باقية، كديار قوم نوح.

● الضمير في قوله: ( منها ) يعود إلى تلك القرى المهلكة، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار، فكأن سائلاً سأل ما حال هذه القرى المهلكة أباقية آثارها أم عفى عليها الزمن؟ فكان الجواب: منها قائم وحصيد.

( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ) إذ أهلكتناهم .

( وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ) ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، بسبب إصرارهم على الكفر، وجحودهم للحق، واستهزائهم

بالرسل الذين جاءوا لهدايتهم .

( فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ) أي : أن هؤلاء المهلكين عند ما نزل بهم العذاب، لم تنفعهم أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله شيئاً من النفع ... بل هي لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا.

والفاء في قوله سبحانه (فَمَا أَغْنَتْ) للتفريع على ظلمهم لأنفسهم، لأن اعتمادهم على شفاعة الأصنام، وعلى دفاعها عنهم... من مظاهر جهلهم وغبائهم وظلمهم لأنفسهم.

ومِنْ في قوله: ( مِنْ شَيْءٍ ) لتأكيد انتفاء النفع والإغناء: أي: لم تغن عنهم شيئاً ولو قليلاً من الإغناء ولم تنفعهم لا في قليل ولا كثير .

( وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ) أي : وما زادتهم أصنامهم التي كانوا يعتمدون عليها في دفع الضر سوى الخسران والهلاك.

قال ابن كثير : قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: أي غير تحسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها فهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، في الدنيا والآخرة.

الفوائد :

١- أن الله يقص علينا نبأ القرى للاعتبار والاتعاظ .

٢- علم من أعلام نبوته ﷺ .

٣- أن الله أهلك كثيراً من القرى بسبب ذنوبهم .

٤- أن تلك القرى منها ما هو موجود آثارها ، ومنها ما محي .

٥- أن سبب هلاك تلك القرى هو الظلم .

( وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ) .

[ هود : ١٠٢ ] .

( وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) أي : ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظالمين السابقين، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتي بعدهم وينهج نهجهم.

والكاف في ( وَكَذَلِكَ ) بمعنى مثل، والمراد بالقرى: أهلها الظالمون.

والأخذ: هو العقاب المبالغت السريع: يقال أخذ فلان الموت، إذا نزل به بسرعة وقوة.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال ( إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) متفق عليه .

● وقوله تعالى ( وهي ظالمة ) فيه أن هلاك الله للأمم إنما بسبب ظلمهم وكفرهم .

والله يمهل الظالمين ولا يهمل كما قال تعالى ( وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ) .

● مباحث تتعلق بإهلاك الله للقرى المكذبة:

أولاً: أخبر الله أنه أهلك كثيراً من القرى.

قال تعالى ( وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ) .

وقال تعالى ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ) .

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيٍ هُمْ أَحْسَنُ أَنثًا وَرِثِيًّا).  
 وقال تعالى (وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا).  
 وقال تعالى (وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ).

ثانياً: أخبر الله أن هلاك القرى والأمم بسبب ذنوبهم وكفرهم.

قال تعالى (فُكَلَّمْنَا بِذُنُوبِهِ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا).

وقال تعالى (كَذَّابٍ آلٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

وقال تعالى (وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

ثالثاً: أن الله لا يهلك القرى حتى يرسل إليهم الرسل.

قال تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا).

وقال تعالى (وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ رِئُوكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا).

رابعاً: أن الله يقص خبر الأمم السابقة للعبرة والاعتاظ.

قال تعالى (فُكَلِّمْنَا مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبُثْرِ مُعْتَلَّةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

وقال تعالى (فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

عَمَرُوهَا).

خامساً: أخبر تعالى أن أهل الترف والغنى هم من يكذب بالرسول من القرى.

قال تعالى (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم

مُقْتَدُونَ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).

سادساً: أخبر تعالى لو أن أهل القرى آمنوا لكان خيراً لهم.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ).

الفوائد :

١- شدة انتقام الله من المكذبين الكافرين .

٢- أن الله أهلك كثيراً من القرى .

٣- أن سبب هلاك الأمم ظلمهم وتكذيبهم .

٤- الحذر من غضب الله .

( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) ) .  
[ هود : ١٠٣ - ١٠٤ ] .

( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين .

( لآيَةً ) أي : عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة .

( لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ) لأنه هو المنتفع بالعبير والعظات لصدق إيمانه، وصفاء نفسه، وإيقانه بأن هناك في الآخرة ثواباً وعقاباً وحساباً على الأعمال الدنيوية..

أما الذي ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، فإنه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوي دمرهم تدميراً، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعة أو فلكية أو غيرها، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم .

● قال الشنقيطي : ... وأما إنما يتذكر بها من يخشاها سبحانه كما قال ( طه ما أنزلنا عليك القرآن ليشقى إلا تذكيراً لِمَن يَخْشَى ) وقال في الساعة ( إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ) .

وأما من لا يؤمن بها ولا يرجوها ولا يخشاها فلا تنفعه الآيات العيانة ولا القرآنية، ولهذا لما ذكر سبحانه في سورة هود عقوبات الأمم المكذبين للرسول وما حل بهم في الدنيا من الخزي، قال بعد ذلك ( إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ) فأخبر أن في عقوباته للمكذبين عبرة لمن خاف عذاب الآخرة.

وقوله ( إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ) أي : يخشى عذاب الآخرة ، فالمحذوف في سورة النازعات صرح به هنا .

● أما من لا يؤمن بالآخرة فلا ينتفع بهذه الآيات .

قال تعالى ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) وقال تعالى ( وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ) .

وقال تعالى ( وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ) .

( ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ) أولهم وآخرهم .

كما قال تعالى ( وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ) .

وقال تعالى ( قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ) .

وقال تعالى ( اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ) .

● ونكر اليوم تهويلاً وتعظيماً

( وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ) أي : عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطيور والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها .

كما قال تعالى ( كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ) .

وقال تعالى ( أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ) .

● والغرض من ذلك، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، بأنه اليوم الذي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد ...

( وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ) الأجل في اللغة: الوقت المضروب لانتهاؤ مدة معينة .

فأجل الإنسان: هو الوقت المحدد لانقضاء عمره، فقلوه ( إلا لأجل ) أي : لوقت .

المعدود : المحسوب بإتقان لا يزيد ولا ينقص

والمعدود: أصله المحسوب، والمراد به هنا: المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها ولا يتأخر عنها.

أي : أننا لا نؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدد معلوم لنا، فإذا ما جاء موعد هذا الوقت، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة، الذي اقتضت حكمتنا عدم إطلاع أحد على مواعده.

الفوائد :

١- أن هلاك الأمم المكذبة آية من آيات الله .

٢- أن من علامات الاعتبار والاتعاظ بالإيمان باليوم الآخر .

٣- أنه ليس كل أحد يعتبر بالآيات .

٤- إثبات الحشر واجتماع الخلائق .

٥- أن يوم القيامة يوم عظيم مشهود .

٦- أنه لا يعلم يوم القيامة إلا الله .

( يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ (١٠٦)

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا

يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُؤْفِقُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩) .

[ هود : ١٠٥ - ١٠٩ ] .

( يَوْمَ يَأْتُ ) أي : يوم يأتي يوم القيامة .

( لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ) أي : لا يتكلم أحد إلا بإذن الله .

كما قال تعالى ( يَوْمَ يَفُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ) .

( فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ) أي: فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد، كما قال ( فَرِيْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيْقٌ فِي السَّعِيرِ ) .

الشقي : هو الشخص المتلبس بالشقاوة. والشقاء: أي سوء الحال- بسبب إثارة الضلالة على الهداية، والباطل على الحق .

والسعيد: هو الشخص المتلبس بالسعادة، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح.

والمعنى: حين يأتي هذا اليوم وهو يوم القيامة، لا تتكلم فيه نفس بأي كلام إلا بإذن الله تعالى ويكون الناس فيه منقسمين إلى

قسمين: قسم شقي معذب بسبب كفره، وسوء عمله، وتفريطه في حقوق الله، وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه: وعمله الصالح.

( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ ) الزفير : هو إخراج النفس بشدة ، والشهيق : هو رد النفس بشدة ، قال

الطبري : صوت الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق

والمراد بهما: الدلالة على شدة كربهم وغمهم، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة، واستبد به الضيق حتى صار في

كرب شديد .

والمعنى: فأما الذين كان نصيبهم الشقاء في الآخرة، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصي في الدنيا، فمصيرهم إلى الاستقرار في النار،

لهم فيها من ضيق الأنفاس. وخرج الصدور، وشدة الكرب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم. وخص

سبحانه من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق تنغيرا من الأسباب التي توصل إلى النار، وتبشيعا لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر، وتعاسة الحال ...

( خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ) أي : أن الأشقياء لهم في النار العذاب الأليم، وهم ماكتون فيها مكث بقاء وخلود .

فإن قيل : قد علم بالأدلة القطعية تأييد عذاب الكفار في النار ، وعدم انقطاعه عنهم ، وثبت أن السموات والأرض تذهب عند انقضاء أيام الدنيا ، فكيف قال ( مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ) ؟  
والجواب من وجهين :

الأول : أن ذلك بناء على عادة العرب إذا أرادت المبالغة في تأييد الشيء ودوامه، قالت: هو دائم ما دامت السموات والأرض، فأفهم الله تخليد الكفرة بذلك، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض، فهو أسلوب جارٍ على عرفهم يفيد الأبد والدوام الخالي عن الانقطاع .

والثاني : ليس المراد بقوله ( مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ) سموات الدنيا وأرضها ، فإن هذه تذهب بذهاب الدنيا ، وإنما المراد بها سموات الآخرة وأرضها ، فهي دائمة مخلوقة للأبد لا تفتنى ولا تنزل ، وعلى هذا فعذابهم وخلودهم أبدي دائم بدوامها . لا يبرحونها مدة دوام السموات التي تظلمهم، والأرض التي تقلهم فهو في معنى قوله تعالى خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .  
( إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) هذه الآية دلت بظاهرها على استثناء خلود أهل النار .

فقد يفهم البعض أن ذلك يدل على انقطاع عذاب الكفار في النار ، ونفي الخلود المؤبد لهم وذلك لقوله ( إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ) .  
● ومن المعلوم المقطوع به ، وهو من عقائد أهل السنة والجماعة : خلود أهل النار بها واستمرار عذابهم بها وعدم انقطاعه .  
وقد جاءت النصوص الكثيرة المتواترة بذلك :

كقوله تعالى ( خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ) .

وقوله تعالى ( إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ) .

وقال تعالى ( وما هم بخارجين من النار ) .

وقال تعالى ( كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ) .

وقال تعالى ( مَا أَوْهَمَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَثَ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ) .

وقال تعالى ( وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ) لأنهم لو ماتوا استراحوا من العذاب .

وقد أجاب العلماء على هذه الآية ( إلا ما شاء الله ) بأجوبة :

الجواب الأول : أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين.

ورجح هذا القول : ابن جرير ، وابن كثير.

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ... نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير، واختار: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط، وقال يوما من الدهر: لا إله إلا الله، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها، ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة . (تفسير ابن كثير)

- **وقال الشوكاني** : قوله ( إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) قد اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء على أقوال منها :  
أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين وإنهم يخرجون بعد مدة من النار، وعلى هذا يكون قوله ( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا ) عاماً في الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من خالدين، وتكون ما بمعنى من، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري بأنه يخرج من النار أهل التوحيد، فكان ذلك مخصصاً لكل عموم.
- **وقال الرازي** : بعد ذكره هذا القول : وهذا كلام قوي في هذا الباب .  
وعلى هذا يكون قوله سبحانه ( فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا ) عاماً في الكفرة والعصاة من أهل التوحيد ، ويكون الاستثناء من خالدين .
- **وقال البيضاوي** في تفسيره (إلا ما شاء ربك) استثناء من الخلود في النار، لأن بعضهم -وهم فساق الموحدين- يخرجون منها .
- **وقال الشنقيطي** : قوله ( إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ) معناه إلا من شاء الله عدم خلوده فيها من أهل الكبائر من الموحدين، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن بعض أهل النار يخرجون منها وهم أهل الكبائر من الموحدين .  
الجواب الثاني : أن المدة التي استثنىها الله هي المدة التي بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم في مصيرهم قاله ابن جرير أيضاً .  
**الوجه الثالث**: أن قوله ( إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ) فيه إجمال وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة مصرحة بأنهم خالدون فيها أبداً، وظاهرها أنه خلود لا انقطاع له، والظهور من المرجحات، فالظاهر مقدم على المجمل كما تقرر في الأصول.  
( إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ) أي : فهو إن شاء غير ذلك فعله، وإن شاء ذلك فعله، ما شاء من الأفعال كان وما لم يشاء لم يكن.  
وجاء سبحانه بصيغة المبالغة فَعَّالٌ للإشارة إلى أنه سبحانه لا يتعاضى عليه فعل من الأفعال بأي وجه من الوجوه.  
( وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ) في الآخرة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .  
( فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ) تقدم الكلام عليها .  
( إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ) لأن كل شيء بمشيئته .  
ولما كان ذلك يوهم الانقطاع قال :  
( عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ) أي : عطاء منه سبحانه لهم غير مقطوع عنهم .  
وهذا نص في عدم انقطاع نعيم أهل الجنة .  
كما قال تعالى ( إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ) .  
وقال تعالى ( مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ) .  
( فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِّن قَبْلُ ) أي : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين وبيننا لك مصير السعداء والأشقياء ... ومادام الأمر كذلك، فلا تك في شك من أن عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم إنما هي تقليد لما كان يعبد آباؤهم من قبل، وأنه كفر وضلال وباطل، وهذه العبادة لغير الله تعالى ستؤدي بالجميع إلى سوء العاقبة وإلى العذاب الأليم .  
والخطاب للرسول ﷺ وهو من باب : إياك أعني واسمعي يا جارة .  
( وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ) أي: وإنا لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهمج آباؤهم في عبادة غير الله، نصيبهم وحظهم من عذاب الآخرة كاملاً بدون إنقاص شيء منه، كما ساروا هم على طريقة سلفهم في الضلال دون أن يغيروا شيئاً منها ...  
ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا: ما يشمل الجزاء على الأعمال الدنيوية والأخروية.

## الفوائد :

- ١- أن يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله .
- ٢- أن الناس ينقسمون يوم القيامة إلى شقي وسعيد .
- ٣- أن من عذاب أهل النار خلودهم فيها وعدم انقطاع عذابهم بها .
- ٤- أن الله يفعل ما يريد .
- ٥- أن من أعظم نعيم أهل الجنة خلودهم الأبدى فيها .
- ٦- أن عظيم أهل الجنة دائم لا ينقطع .

الخميس: ٢٢/رمضان/١٤٣٩هـ

( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ( ١١٠ )  
وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لَيُؤْفِقِينَ رُبُّكَ أَعْمَاهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ( ١١١ ) )  
[ هود : ١١٠ - ١١١ ] .

( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ) أي : كما اختلف قومك- أيها الرسول الكريم- في شأن القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين، فقد اختلف قوم موسى من قبلك في شأن التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ... .

ومادام الأمر كذلك، فلا تحزن- أيها الرسول الكريم- لاختلاف قومك في شأن القرآن الكريم، فإن هذا الاختلاف شأن الناس في كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت .  
فالجملمة الكريمة تسليية للرسول ﷺ عما أصابه من مشركي قومه .

● قال ابن عطية : تسليية لمحمد ﷺ وذكر قصة موسى مثل له ، أي لا يعظم عليك أمر من كذبك ، فهذه هي سيرة الأمم ، فقد جاء موسى ، بكتاب فاختلف الناس عليه .

● وقال ابن عاشور : اعتراض لتثبيت النبي ﷺ وتسليية بأن أهل الكتاب وهم أحسن حالاً من أهل الشرك قد أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه، وهم أهل ملة واحدة فلا تأس من اختلاف قومك عليك، فالجملمة عطف على جملة (فلا تك في مرية) ولأجل ما فيها من معنى التثبيت فُرع عليها قوله ( فاستقم كما أمرت ) .

● قال ابن عاشور : معنى الاختلاف فيه اختلاف أهل التوراة في تقرير بعضها وإبطال بعض ، وفي إظهار بعضها وإخفاء بعض مثل حكم الرجم، وفي تأويل البعض على هواهم، وفي إلحاق أشياء بالكتاب على أنها منه، كما قال تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) فهذا من شأنه أن يقع من بعضهم لا من جميعهم فيقتضي الاختلاف بينهم بين مثبت وناقض ، وهذا الاختلاف بأنواعه وأحواله يرجع إلى الاختلاف في شيء من الكتاب .

( وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ) يعني بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لكان الذي يستحقونه من تعجيل العقوبة في الدنيا على كفرهم وتكذيبهم وهو قوله تبارك وتعالى : (لقضي بينهم) يعني لعذبوا في الحال وفرغ من عذابهم وإهلاكهم ويحتمل : أن يكون بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

كما قال تعالى ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ) .

● قال ابو حيان : والظاهر عود الضمير في بينهم على قوم موسى ﷺ ، إذ هم المختلفون فيه ، أو في الكتاب .

وقيل : يعود على المختلفين في الرسول من معاصريه.

● قال ابن عطية : وأنَّ يعمهم اللفظ أحسن عندي ، وهذه الجملة من جملة تسليته أيضاً.

( وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ) أي : وإن هؤلاء المختلفين في شأن الكتاب لفِي شك منه، وهذا الشك قد أوقعهم في الريبة والتخبط والاضطراب.

وهذا شأن المعرضين عن الحق، لا يجدون مجالاً لنقده وإنكاره، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه، وتأويله تأويلاً سقيماً يدعو إلى الريبة والقلق.

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير في قوله وَإِنَّهُمْ إلى قوم موسى، وفي قوله مِنْهُ إلى كتابهم التوراة.

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبي ﷺ والثاني إلى القرآن الكريم.

والذي يبدو لنا أن الرأي الأول أظهر في معنى الآية، لأن الكلام في موسى ﷺ وقومه الذين اختلفوا في شأن كتابهم التوراة اختلافاً كبيراً، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول.

وهذا لا يمنع أن بعض المكذبين للرسول ﷺ كانوا في شك من القرآن، أوقعهم هذا الشك في الريبة والحيرة.

( وَإِنَّ كُلاً ) يعني من الفريقين المختلفين المصدق والمكذب .

( لَمَّا لِيُؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ) اللام لام القسم تقديره والله ليوفينهم جزاء أعمالهم في القيامة فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي المكذب على تكذبه النار .

● قال الرازي : أي : أن من عجلت عقوبته ومن أخرت ومن صدق الرسل ومن كذب فحالمهم سواء في أنه تعالى يوفيههم جزاء أعمالهم في الآخرة .

فجمعت الآية الوعد والوعيد فإن توفية جزاء الطاعات وعد عظيم وتوفية جزاء المعاصي وعيد عظيم .

إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) يعني أنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وإن دقت ففيه وعد للمحسنين المصدقين وفيه وعيد وتهديد للمكذبين الكافرين.

الفوائد :

١- إثبات رسالة موسى .

٢- حكمة الله في انقسام الناس عند مجيء الرسل إلى مصدق ومكذب .

٣- حكمة الله اقتضت أن لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة .

٤- أن الله يوم القيامة يعطي كل أحد حقه الذي يستحقه .

٥- أن الله خبير بأعمال العباد ، لا تخفى عليه خافية .

( فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ( ١١٢ ) ) .

[ هود : ١١٢ ] .

( فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ) يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين في هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة، لأن

ذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، وينهاهم عن الطغيان وهو البغي، لأنه مصرعة حتى ولو كان على مشرك .

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ، قَالَ « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ » رواه مسلم .

- والاستقامة هي المداومة على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه وقيل : هي طلب إقامة النفس على الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم هو الإسلام كما ثبت تفسيره من حديث ثوبان عند أحمد بسند جيد .
- فضائل الاستقامة بعد الإيمان :
- أولاً : تنزل عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة وعدم الخوف .
- قال تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ) .
- قوله ( تنزل عليهم الملائكة ) قيل : عند الاحتضار ، وقيل : يوم خروجهم من قبورهم ، وقيل : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث، واختار هذا القول ابن كثير وقال: وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً .
- ثانياً : الاستقامة سبب لبسط الرزق .
- قال تعالى ( وَأَلُو اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً عَذْقًا ) .
- قال القرطبي : أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق .
- ثالثاً : أن الله أمر نبيه بالاستقامة .
- قال تعالى ( فَاسْتَقِيمْ كَمَا أُمِرْتَ ) .
- كان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة .
- أنه لا يلزم من الاستقامة عدم الوقوع بشيء من المعاصي فقد قال تعالى ( فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ) .
- قال ابن رجب : فيه إشارة إلى أنه لا بد من التقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كما قال النبي ﷺ لمعاذ ( اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها) وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ قال (سددوا وقاربوا) فالسداد هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمماً على قصد السداد وإصابة الغرض ، فتكون مقارنته عن عمد .
- وأعظم ما ينبغي مراعاته في الاستقامة استقامة القلب ، فهو ملك الأعضاء وهي جنوده ، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه .
- قال ابن القيم : فاستقامة القلب بشيئين:
- (أحدهما) أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب تعالى الله وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه.
- ما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.
- وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى.
- (والثاني) الذي يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الأمر الناهي، فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: (ما لكم لا ترجون لله وقاراً) قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة.
- وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه .
- وكذلك مما ينبغي مراعاة استقامته بعد القلب اللسان ، فإنه ترجمان القلب .
- ولذلك قال ﷺ (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: إن استقامت استقمنا، وإن اعوججت اعوججتنا) رواه الترمذي .

وجاء في رواية للترمذي: قلت يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه .  
وقد جاء في مسند الإمام أحمد عن أنس . أن النبي ﷺ قال ( لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ) .

● أسباب الاستقامة :

أولاً : دعاء الله بالثبات .

كان ﷺ يقول : ( يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك ) .

ثانياً : قراءة القرآن وتدبره .

قال تعالى ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ) .

● أن من استقام في هذه الدار على الهداية ، وفقه الله تعالى للهداية يوم القيامة .

قال ابن القيم رحمه الله : فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذلك الصراط .

( إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) استئناف لتحذير من أخفى الطغيان بأن الله مطلع على كل عمل يعمله المسلمون ، ولذلك اختير وصف ( بصير ) من بين بقية الأسماء الحسنى لدلالة مادته على العلم البين ودلالة صيغته على قوته.

الفوائد :

١- الأمر بالاستقامة على شرع الله .

٢- أن الله يأمر رسوله .

٣- أهمية الاستقامة .

٤- الحذر من الطغيان والتماذي في العصيان .

٥- أن الله يبصر كل شيء .

( وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) )

[ هود : ١١٣ ] .

( وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ) الركوب إلى الشيء: الميل إليه ، يقال ركب فلان إلى فلان، إذا مال إليه بقلبه، واعتمد عليه في قضاء مصالحه.

● قال الرازي : والركوب هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالحبّة ونقيضه النفور عنه .

والمراد بالذين ظلموا هنا: ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير، ويستحلون من محارم الله. والمعنى: واحذروا- أيها المؤمنون- أن تميلوا إلى الظالمين، أو تسكنوا إليهم لأن ذلك يؤدي إلى تقوية جانبهم. وإضعاف جانب الحق والعدل.

● قال القرطبي : قوله تعالى (وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ) قيل : أهل الشرك.

وقيل : عامة فيهم وفي العصاة ، على نحو قوله تعالى ( وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ) .

وهذا هو الصحيح في معنى الآية ؛ وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة ؛ وقد قال حكيم :  
عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه . . فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يفتدي

● **قال الرازي :** قال المحققون : الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون.

( فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ) أي : فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم، والاعتماد عليهم، والرضا بأفعالهم.

( وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ) أي : ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله.

ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ) أي : لا تجدون من ينصركم من تلك الواقعة.

**قال بعض العلماء :** الآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم، والتهديد عليه، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس في حماه؟! ثم قال: وقد وسع العلماء في ذلك وشددوا، والحق أن الحالات تختلف، والأعمال بالنيات.

والتنفصيل أولى.

**الفوائد :**

١- أن الله تعالى حكم بأن من ركن إلى الظلمة لا بد وأن تمسه النار وإذا كان كذلك فكيف يكون حال الظالم في نفسه.

٢- تحريم الظلم .

٣- تحريم معاونة الظلمة .

٤- أن الركون إلى الظلمة خطره عظيم ، حيث فيه تقوية للظلم ، وإضعاف للحق ، وتأيد للظلمة .

٥- تحذير لكل ظالم ومن يعاونه .

( وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ( ١١٤ ) )

[ هود : ١١٤ ] .

( وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ) إقامة الصلاة المراد الإتيان بها على الوجه المطلوب .

وإقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر).

● **قال ابن عاشور :** انتقل من خطاب المؤمنين إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم وهذا الخطاب يتناول جميع الأمة بقرينة أن الأمور به من الواجبات على جميع المسلمين ، لا سيما وقد ذكر معه ما يناسب الأوقات المعينة للصلوات الخمس ، وذلك ما اقتضاه حديث أبي اليسر الآتي.

وطرف الشيء : منتهاه من أوله أو من آخره ، فالثنوية صريحة في أن المراد أول النهار وآخره.

● والمراد بالصلاة هنا: الصلاة المفروضة.

● **قال القرطبي :** لم يختلف أحد من أهل التأويل في أن الصلاة في هذه الآية، المراد بها الصلوات المفروضة. وخصها بالذكر لأنها ثانية أركان الإسلام، وإليها يفزع في النوائب، وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

( طَرْفِي النَّهَارِ ) وطرفي النهار: أي أول النهار وآخره، لأن طرف الشيء منتهاه من أوله أو من آخره. والنهار: يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس. سمي بذلك لأن الضياء ينهر فيه أي يبرز كما يبرز النهار. وفي المراد بطرفي النهار أقوال :

ف قيل : الصلاة التي تكون في هذين الوقتين، تشمل صلاة الغداة وهي صلاة الصبح، وصلاة العشي وهي صلاة الظهر والعصر، لأن لفظ العشي يكون من الزوال إلى الغروب.

وقيل : الصلاة التي تكون في هذين الوقتين هي صلاة الصبح والمغرب.

( وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ ) أي في زُلْفٍ من الليل ، والزلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها منزل بعد عَرَفَةَ بقرب مكة.

وصلاة الزلف تطلق على صلاتي المغرب والعشاء .

• قال ابن كثير : وقوله وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ يعني صلاة المغرب والعشاء.

• قال ابن كثير : ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ في حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضا في قول .

( إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ) أي : إن الأعمال الحسنة- كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والاستغفار ... يذهبن الأعمال السيئات، أي يذهبن المؤاخذة عليها، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة. والمراد بالحسنات هنا : الصلوات الخمس .

وهذا قول الجمهور .

• قال القرطبي : ذهب جمهور المتأولين من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم إلى أن الحسنات هاهنا هي الصلوات الخمس وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، قال ابن عطية : وهذا على جهة المثال في الحسنات ، والذي يظهر أن اللفظ عام في الحسنات خاص في السيئات ؛ لقوله رضي الله عنهم : ما اجتنبت الكبائر . قلت : سبب النزول يعضد قول الجمهور . ( تفسير القرطبي ) .

جاء في الصحيحين : عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ( أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً ، فَأَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ( أقيم الصلاة طَرْفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ) . فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا قَالَ « لَجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ ) .

• والمراد بالسيئات هنا صغار الذنوب .

لقوله تعالى ( إِنَّ بَجَّيْنُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ) .

ولقوله تعالى ( الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ) .

ولأن كباير الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة.

كما قال صلى الله عليه وسلم ( الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر ) رواه مسلم.

( ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ ) أي : ذلك الذي أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة، ومن الاستقامة على أمر الله ... فيه التذكرة النافعة، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار، لا الإعراض والعناد.

أي عظمة للمتعتظين ، وخصهم بالذكر لأنه المنتفعون بها .

والإشارة إلى ما تقدم من الوصية بالاستقامة والنهي عن الطغيان والركون إلى الذين ظلموا وإقامة الصلوات في تلك الأوقات

بتأويل المذكور ، وإلى هذا ذهب الزمخشري ، واستظهر أبو حيان كون ذلك إشارة إلى إقامة الصلاة وأمر التذكير سهل ، وقيل : هي إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيئات ، وقال الطبري : إشارة إلى الأوامر والنواهي في هذه السورة ، وقيل : إلى القرآن ، وبعض من جعل الإشارة إلى الإقامة فسر الذكري بالتوبة.

#### الفوائد :

- ١- وجوب إقامة الصلاة على الوجه الشرعي .
- ٢- أن للصلوات الخمس أوقات معلومة تكون فيها .
- ٣- أن الحسنات تكفر السيئات لقوله ( إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ) ، والمراد بالسيئات هنا الصغائر . فالجمهور حملوا المطلق هنا على المقيد بحديث ( الصلوات الخمس ... مكفرات ما اجتنبت الكبائر ) . قال ابن جزى الكلبي : وإنما تذهب الحسنات عند الجمهور الصغائر إذا اجتنبت الكبائر .
- ٤- عظم شأن الصلاة .

#### تنبيه :

من فوائد حديث ابن مسعود السابق :

- أولاً : أن القبلة ليست من الكبائر ، لأن الكبائر لا تكفرها الصلوات الخمس .
- ثانياً : أنه إذا نزلت الآية في حادثة معينة فالعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، فقوله تعالى ( إن الحسنات يذهبن السيئات ) نزلت في شأن الرجل المذكور ولكنها جاءت بلفظ عام شامل فدخل فيها جميع المؤمنين والحمد لله على فضله . فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أدلة هذه القاعدة :
- وقد جاء في رواية ( فَقَالَ رَجُلٌ مِّنَ الْقَوْمِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةٌ قَالَ : بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةٌ ) . وهذا صريح في أن العبرة بعموم اللفظ .
- ثالثاً : الرجوع إلى أهل العلم فيمن وقع فيه الإنسان من مشاكل أو إشكالات .
- رابعاً : أن نزول القرآن قد يكون ابتداءً وقد يكون لسبب .
- ( وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ) ( ١١٥ ) .
- [ هود : ١١٥ ] .

( وَاصْبِرْ ) أي : مشاق الدعوة ، وعلى أذى قومك لك .

وقد كثرت وتنوعت الفضائل الكثيرة للصبر ، وقد تقدم كل ذلك .

وتقدم لماذا يأمر الله بالصبر .

( فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ) أي : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التي كلفكم الله تعالى بها، فإنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب . والإحسان : الإتيان بالعمل حسناً ، بأن يكون مطابقاً للأمر .

#### الفوائد :

- ١- وجوب الصبر على أمر الله .
- ٢- وجوب الصبر على أذى الأعداء .

٣- عظم منزلة الصبر ، ولذا أمر الله به .

٤- أن من صبر فاز وانتصر .

٥- الحث على الإحسان في العمل .

٦- أنه لا يضيع شيء عند الله من الأعمال .

( فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ( ١١٦ ) )  
[ هود : ١١٦ ] .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ( يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.  
( إِلَّا قَلِيلًا ) أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غيِّره، وفعادة نَقَمته .  
ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .  
كما قال تعالى ( وَتُكِّنْ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ) .  
وفي الحديث ( إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعُمَّهم الله بعقاب ) .  
● ففي الآية إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، حلت بها المصائب والنكبات.  
ولولا: حرف تضييض بمعنى هلا.

والمقصود بالتضييض هنا تحذير المعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتي بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين.

● وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له عقوبات :

منها : نزول عقاب الله وعدم استجابة الدعاء .

عن حذيفة ؓ ، عن النبي ﷺ ، قال ( وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ ) رواه الترمذي ، وقال : « حديث حسن » .

ومنها : أن ذلك من صفات المنافقين .

قال تعالى ( الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ) .

ومنها : نزول البلاء والعذاب العام .

قال تعالى ( وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ) .

والتَّحْقِيقُ فِي مَعْنَاهَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَعْمُ الظَّالِمَ وَغَيْرُهُ هِيَ أَنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُعَيِّرُوهُ عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ ، صَالِحِيهِمْ وَطَالِحِيهِمْ ، وَبِهِ فَسَرَّهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ شَاهِدَةٌ لِذَلِكَ .

ولما قالت أم المؤمنين زينب رضي الله عنها: ( أهلك وفينا الصالحون ؟ ) قال لها الرسول ﷺ : نعم ، إذا كثرت الخبث ) .

وكما في الحديث ( إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه ) .

ومنها : اللعن والإبعاد من رحمة الله .

قال تعالى ( لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ

عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ) .

قال عليه السلام ( والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم ) . رواه أبو داود

ومنها : انتفاء خيرية الأمة .

لأن الله علق خيرية هذه الأمة بالقيام بهذه المهمة ، قال تعالى ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ) .

قال القرطبي : مدح هذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطأوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببا لهلاكهم .

ومنها : ظهور المعاصي والمنكرات وانتشارها .

ومنها : استعلاء أهل الشر والفساد .

( وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ) أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنيء والشهوات العاجلة، فكفروا النعمة، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، حتى فجأهم العذاب .

• وأترفوا من الترف ومعناه التقلب في نعم الله تعالى مع ترك شكره سبحانه عليها.

والمترف: هو الشخص الذي أبطرته النعمة، فانغمس في الشهوات والمعاصي، وأعرض عن الأعمال الصالحة ...

• أهل الترف هم أعداء الرسل غالباً ، وقد جاء ذلك في القرآن ، حيث لم يذكر الترف إلا في مقام الذم.

قال تعالى ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ).

قال تعالى ( وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).

وقال تعالى ( كَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ).

وقال تعالى ( وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَلَمَّا أَحْسَنُوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ).

وقال تعالى ( حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ).

وقال تعالى ( وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا [فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا]).

( وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ) أي : مصرين على ارتكاب الجرائم .

الفوائد :

١- أن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع سبب لعدم نزول العذاب .

٢- الترهيب من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٣- أنه لا تزال توجد طائفة على الحق حتى تقوم الساعة .

٤- أن القيام بهذه الشعيرة سبب للنجاة .

٥- خطر الترف ، وأنه سبب للطغيان .

( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (١١٧) )

[ هود : ١١٧ ] .

( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ) أي : وما كان ربك -أيها الرسول- ليهلك قرية من القرى وأهلها مصلحون في الأرض، مجتنبون للفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم وفسادهم.

كما قال تعالى ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ) .

وقال ( وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ) .

وقال تعالى ( وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ) .

الفوائد :

١- أن سبب هلاك الأمم ظلمها وتكذيبها .

٢- تنزيه الله تعالى عن الظلم وذلك لكمال عدله .

٣- أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه .

٤- أن الإصلاح وعدم الفساد سبب لعدم تعذيب الله .

( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ) .

[ هود : ١١٨ - ١١٩ ] .

( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ) أي : ولو شاء ربك -أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه- أن يجعل الناس

جميعاً أمة واحدة مجتمعمة على الدين الحق لجعلهم، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، ليطهر الخبيث من الطيب .

كما قال تعالى ( وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً ) .

وقال تعالى ( وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ) .

( وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ) أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم.

( إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ ) أي: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخرجتهم به رسل الله إليهم، ولم

يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبي ﷺ الأمي خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛

لأنهم الفرقة الناجية .

( وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ) اختلف العلماء في المشار إليهم بقوله ( ولذلك .. ) على أقوال :

القول الأول : أن المشار إليه ( إلا ما رحم ربك ) أي : وللرحمة خلقهم .

وهذا قول مجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

قالوا : إن عود الضمير إلى أقرب مذكور أولى من عوده إلى أبعدهما ، وأقرب المذكورين هنا : الرحمة ، والاختلاف أبعدهما .

القول الثاني : أن الإشارة للاختلاف ، أي : وللاختلاف خلقهم .

وبهذا قال الحسن ، وعطاء ، ومالك .

ورجح ابن جرير الطبري ، والقاسمي ، والشنقيطي ، وابن عاشور .

لقوله تعالى ( وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) .

قالوا : ففي هذا تصريح بأنه تعالى خلق أقواماً للهداية والجنة ، وأقواماً آخرين للضلالة والنار .

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه ( ثم يبعث الله إليك الملك فيؤمر بأربع كلمات : فيكتب رزقه ، وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد " .  
وروى مسلم من حديث عائشة . رضي الله عنها ( يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم ) .

وفي صحيح مسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ( إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء ) .

- وإذا تقرر أن قوله تعالى ( ولذلك خلقهم ) معناه : أنهم خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض .  
فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآية ، مع قوله تعالى ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) .  
وقد اختلف العلماء في الجمع بين الآيتين على أقوال :

**أصحها :** أن الله تعالى ذكر في قوله ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) الغاية التي من أجلها خلقوا وأمروا بها ، وفي قوله ( ولا يزالون مختلفين ) الغاية التي إليها يصيرون ، وكلتاها مرادة له .

فالإرادة في قوله ( ولذلك خلقهم ) إرادة كونية قدرية ، وهي التي بمعنى المشيئة التي يتعين فيها وقوع المراد وهي عامة فيما يحبه الله وما لا يحبه .

وأما الإرادة في قوله ( وما خلقت الجن ... ) فهي إرادة شرعية دينية ، وهي التي بمعنى المحبة التي لا يتعين وقوع المراد ، وهي تختص فيما يحبه الله سواء وقع أو لم يقع .

( وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره ، لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس .  
وله الحجة البالغة والحكمة التامة .

عن أبي هريرة . قال : قال صلى الله عليه وسلم ( تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أَوْثَرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَرِّبِينَ . وَقَالَتِ الْجَنَّةُ فَمَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ وَغَرَّتُهُمْ قَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ إِنَّمَا أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي . وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي . وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مَلُؤَهَا فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رِجْلَهُ تَقُولُ قَطُّ قَطُّ . فَهَذَا لِكَ تَمْتَلِي وَيُرْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَلَا يَظْلُمُ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا » .

( جهنم ) سميت بذلك إما لبعدها قعرها ، من قولهم : بثر جهنم ، إذا كانت عميقة القعر ، وقيل : مشتقة من الجهومة وهي الغلظة ، سميت بذلك لغلظ أمرها في العذاب ، فتكون ممنوعة من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي .

**مباحث تتعلق بالآية :**

**مبحث : ١**

في الآية أن الجني الكافر يدخل النار ، وهذا بالإجماع .

كما قال تعالى ( وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ) .

وقال تعالى ( وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ ) .

وقال تعالى ( قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ) .

وقال تعالى ( إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ) .

## مبحث : ٢

واختلف العلماء في مؤمنهم على قولين :

**القول الأول :** لا ثواب لهم إلا النجاة من النار .

وهذا قول أبي حنيفة .

لقوله تعالى : ( يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ) .

**القول الثاني :** أنهم يدخلون الجنة .

وهذا مذهب الجمهور .

لقوله تعالى ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ) والخطاب للإنس والجن .

ولقوله تعالى ( لَمْ يَطْمِئْتُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ) .

ولقوله تعالى ( إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ) .

ومما يؤيد هذا أن الله سبحانه قد جازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل ، فكيف لا يجازي محسنهم بالجنة وهو مقام فضل .

وهذا القول هو الصحيح .

## مبحث : ٣

إثبات الجن ، وهذا ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : ( وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ) .

وقال تعالى : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) .

وقال تعالى : ( وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنَّ يَشْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ) .

وعن أبي سعيد قال : قال لي رسول الله ﷺ : ( إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة

فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع صوت المؤذن إنس ولا جن ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ) .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول : ( أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجن والإنس يموتون ) . رواه البخاري

وقال ﷺ : ( خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ) . رواه مسلم

## مبحث : ٤

أن الجن مكلفون ، ولذلك يعاقب عاصيهم ويثاب مطيعهم .

قال ابن رجب : والجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليس مماثلين للإنس في الجسد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به

ونحوه عنه مساوياً لما على الإنس في الجسد ، لكنهم شاركوا الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا

ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .

قال تعالى : ( وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) .

ويقول تعالى يوم القيامة مخاطباً كفرة الجن والإنس موجهاً مكتباً : ( يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ

آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَزَّيْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ) .

## الفوائد :

١- حكمة الله في جعل الناس مختلفين .

٢- حكمة الله في وجود الحق والباطل .

- ٣- أن الموفق من وفقه الله لاتباع الرسل وهديتهم ليكون من المرحومين .  
 ٤- لابد من أن تمتلئ جهنم من الإنس والجن الكفار .  
 ٥- أن الجن مكلفون كالإنس .  
 ٦- إثبات جهنم .

السبت: ٢٥/رمضان/١٤٣٩هـ

( وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) )  
 [ هود : ١٢٠ ] .

لما ذَكَرَ اللهُ تعالى في هذه السُّورَةِ مِنْ أَحْبَابِ الْأَنْبِيَاءِ مَا ذَكَرَ؛ ذَكَرَ الْحِكْمَةَ فِي ذِكْرِ ذَلِكَ فَقَالَ :  
 ( وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ) أَي: وَنَقُصُّ عَلَيْكَ - يَا مُحَمَّدُ- كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ أَحْبَابِ  
 الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ؛ مَا نُثَبِّتُ بِهِ قَلْبَكَ، فَتَزِدَادُ إِيمَانًا وَيَقِينًا وَصَبْرًا عَلَى تَكْذِيبِ قَوْمِكَ، كَمَا صَبَرَ الْمُرْسَلُونَ مِنْ قَبْلِكَ .  
 • فِيهِ أَنْ مِنْ فَوَائِدِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ تَثْبِيتُ الْفُؤَادِ عَلَى أَدَاءِ الرِّسَالَةِ وَعَلَى الصَّبْرِ وَاحْتِمَالِ الْأَذَى .  
 وذلك لأن الإنسان إذا ابتلى بمحنة وبليّة فإذا رأى له فيه مشاركاً خف ذلك على قلبه ، كما يقال : المصيبة إذا عمت خفت ،  
 فإذا سمع الرسول هذه القصص ، وعلم أن حال جميع الأنبياء صلوات الله عليهم مع أتباعهم هكذا ، سهل عليه تحمل الأذى من  
 قومه وأمكنه الصبر عليه .

كما قال تعالى ( وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبْتِ رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ) .  
 وقال تعالى ( مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ) .  
 • وقال الحازن : وذلك لأن النبي ( صلى الله عليه وسلم ) إذا سمع هذه القصص وعلم أن حال جميع الأنبياء مع أتباعهم  
 هكذا سهل عليه تحمل الأذى من قومه وأمكنه الصبر عليه .  
 • وقال أبو حيان : وتثبيت الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولاتباعهم المؤمنين ، وما لقوا من مكذبيهم من  
 الأذى ، ففي هذا كله أسوة بهم ، إذ المشاركة في الأمور الصعبة تهون ما يلقي الإنسان من الأذى ، ثم الإعلام بما جرى على  
 مكذبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع من العذاب من غرق وريح ورجفة وخسف ، وغير ذلك فيه طمأنينة للنفس ،  
 وتأنيس بأن يصب الله من كذب الرسول ﷺ بالعذاب ، كما جرى لمكذبي الرسل .  
 وإنشاء له عليه الصلاة والسلام بحسن العاقبة له ولأتباعه ، كما اتفق للرسل وأتباعهم .  
 • قال الشوكاني : قوله تعالى ( مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ) أَي : ما نجعل به فؤادك مثبتاً بزيادة يقينه بما قصصناه عليك ، ووفور  
 طمأنينته ، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ في النفس وأقوى للعلم .  
 ( وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ ) الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ ( فِي هَذِهِ ) يَعُودُ إِلَى السُّورَةِ .

وهذا قول الجمهور .

• قال الحازن : قوله تعالى ( فِي هَذِهِ .. ) قيل في هذه السورة وهو الأقرب وهو قول الأكثرين . اهـ .  
 وقيل : في هذه الآية .

والأول أرجح .

• قال ابن عطية : وقوله ( فِي هَذِهِ ) قال الحسن : هي إشارة إلى دار الدنيا ، وقال ابن عباس : إلى السورة والآيات التي فيها

ذكر قصص الأمم ، وهذا قول الجمهور .

● ما الحكمة من تخصيص هذه السورة بالحق ، مع أن القرآن كله حق ؟

**الجواب الأول :** قيل إن الحق في هذه السورة أكمل حالاً مما ذكر في سائر السور .

● **قال الرازي :** واعلم أنه لا يلزم من تخصيص هذه السورة بمحيي الحق فيها أن يكون حال سائر السور بخلاف ذلك ، لاحتمال أن يكون الحق المذكور في هذه السورة أكمل حالاً مما ذكر في سائر السور ، ولو لم يكن فيها إلا قوله : ( فاستقم كما أمرت ) لكان الأمر كما ذكرنا .

**الجواب الثاني :** خصت بذلك تشریفاً لها .

● **قال الخازن :** فإن قلت جاءه الحق في سورة القرآن فلم خص هذه السورة بالذكر قلت لا يلزم من تخصيص هذه السورة بالذكر أن لا يكون قد جاءه الحق في غيرها من السور بل القرآن كله حق وصدق وإنما خصها بالذكر تشریفاً لها .

● **وقال الشوكاني :** يكون تخصص هذه السورة بمحيي الحق فيها مع كونه قد جاء في غيرها من السور ، لقصد بيان اشتغالها على ذلك ، لا بيان كونه موجوداً فيها دون غيرها .

● ذهب بعض العلماء إلى أن مرجع في قوله ( في هذه .. ) أي : في هذه الدنيا الحق ، وفيه بُعد لأنه لم يجر للدنيا ذكر حتى يعود الضمير إليها .

( الحَقُّ ) صدق القصص وصحة الأنباء .

( وَمَوْعِظَةٌ ) والوعظ : هو الكلام الذي يلين القلوب .

أي : وجاءك في هذه السورة أيضاً مَوْعِظَةٌ مِنَ اللَّهِ يَتَّعِظُ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا سَمِعُوا فِيهَا مَا نَزَلَ بِالْأَمَمِ مِنَ الْعَذَابِ ، وَحَتَرِزُونَ عَمَّا أَهْلَكَهَا .

● **قال القرطبي :** فالموعظة ما يُتَّعِظُ به من إهلاك الأمم الماضية ، والقرون الخالية المكذبة ؛ وهذا تشریف لهذه السورة ؛ لأن غيرها من السور قد جاء فيها الحق والموعظة والذكرى ولم يقل فيها كما قال في هذه على التخصيص .

● **وقال الخازن :** أي وهذه السورة موعظة يتعظ بها المؤمنون إذا تذكروا أحوال الأمم الماضية وما نزل بهم .

والقرآن وصفه الله بأنه كله موعظة فقال تعالى ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ) أي: زاجر عن الفواحش . والوعظ هو التذكير بالعواقب لترق القلوب، فمن أوصاف القرآن أنه موعظة .

والقرآن مملوء بما يتعظ القارئ به إذا تدبره وفهم معناه، وأرعى له سمعه، وفرغ له قلبه.

● **قال ابن عاشور :** الموعظة التذكير بما يصد المرء عن عمل مضر .

( وَذِكْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ ) الذكرى : مجرد التذكير بما ينفع .

● **قال القرطبي :** وخصّ المؤمنين لأنهم المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

**الفوائد :**

١- فيه أن سماع أخبار الأحيار فيه تقوية للعزائم، وإعانة على اتباع تلك الآثار؛ فإن النفوس تأنس بالاعتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به

٢- الاعتبار من قصص الرسل، بما فيها من حُسن صبرهم على أُممهم، واجتهادهم على دُعائهم إلى عبادة الله بالحق، وتذكير الخير والشر، وما يدعو إليه كلُّ منهما من عاقبة النفع والضَّر؛ للثبات على ذلك جميعه اقتداءً بهم .

٣- عناية الله تعالى بنبية ﷺ .

٤- أن القرآن من أسباب ثبات القلب .

٥- أهمية ثبات القلب على الحق ولذلك كان ﷺ يقول : يا مقلب القلوب ثبتي قلبي على طاعتك .

٦- الثناء على القرآن وخاصة هذه السورة .

٧- أن القرآن ذكرى وموعظة لأهل الإيمان .

٨- فضل الإيمان ، وأنه من أسباب الاعتاض والاعتبار .

قال تعالى (وُنزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا).

وقال تعالى (وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَأْتِيكَ بِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَدَّتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ).

وقال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ).

( وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٢٢) )

[ هود : ١٢١ - ١٢٢ ] .

( وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ) فيه وعيد وتهديد يعني اعملوا ما أنتم عاملون فستعلمون عاقبة

ذلك العمل فهو كقوله : اعملوا ما شئتم .

( وَانظُرُوا ) تهديد آخر .

( إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ) يعني ما يحل بكم من نعمة الله وعذابه إما في الدنيا وإما في الآخرة.

الفوائد :

١- أمر الله لنبيه ﷺ أن يهدد هؤلاء الكفرة .

٢- تهديد ووعيد لكل كافر من عقاب الله ونقمته .

٣- أن تأخير العذاب عن القوم الكافرين لحكمة .

( وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ) .

[ هود : ١٢٣ ] .

( وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ) أي : يعلم ما غاب عن العباد فيهما يعني أن علمه سبحانه وتعالى نافذ في جميع الأشياء

خفيها وجليها وحاضرها ومعدومها لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

• قال أبو حيان : لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، ولا حظ لمخلوق في علم الغيب .

• وقال الألوسي : أي أنه سبحانه يعلم كل ما غاب في السموات والأرض ولا يعلم ذلك أحد سواه جل وعلا .

قال تعالى ( إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ) .

وقال سبحانه ( إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ) .

( وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ) أي : كل الأمور راجعة إليه تعالى ، ومن الأمور الراجعة إليه بنو آدم وأعمالهم ، فيجازي كلاً منهم بما

يستحق من خير أو شر .

• قال ابن عاشور : وإلى الله لا إلى غيره يرجع الأمر كله ، وهو تعريض بفساد آراء الذين عبدوا غيره ، لأن من لم يكن

كذلك لا يستحق أن يعبد ، ومن كان كذلك كان حقيقاً بأن يفرد بالعبادة.

( فَأَعْبُدْهُ ) أي : قم بعبادته .

وفي هذا وجوب عبادة الله تعالى ، وهذا أول واجب على العبد . ( وقد تقدمت مباحث العبودية ) .

● وفائدة الترتيب بالفاء في قوله ( فاعبده ) الإشارة إلى نكته ، وهو أنه لا ينبغي أن يعبد ويخضع ويذل إلا لمن اتصف بهذه

الصفات العظيمة ، ومثله ( رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ) .

( وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ) أي : اعتمد على الله وثق به . ( وقد تقدم مباحث التوكل ) .

وخصَّ التوكل بالذكر وهو الاستعانة وهي من عبادة الله؛ ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنَّها هي العونُ على سائر أنواع العبادة؛ إذ

هو سبحانه لا يُعبدُ إلاَّ بمعونته .

( وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) أي: أنه تعالى رقيب على أعمالكم لا يخفي عليه خافية، وسيجازيهم عليها، وفي هذا وعيد

وتهديد.

وفي هذا وعيد شديد لمن عصى أوامر الله، فإن الله لا يغفل عنه شيئاً وذلك لكمال علمه سبحانه وتعالى.

● قال القاسمي: وقوله تعالى ( وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى . فإن الله عز وجل إذا

كان عالماً بما يعملونه، مطلعاً عليه غير غافل عنه، كان لجازاتهم بالمرصاد.

● والغفلة صفة منفية فيجب نفيها عن الله مع إثبات ضدها، فالله لا يغفل لكمال علمه.

الفوائد :

١- عموم علم الله تعالى بكل شيء .

٢- أنه لا يعلم الغيب أحد إلا الله .

٣- وجوب مراقبة الله تعالى ، لأنه لا يخفى عليه شيء .

٤- أن مرجع جميع الأمور إلى الله .

٥- وجوب عبادة الله تعالى .

٦- وجوب التوكل على الله .

٧- يجب على العبد أن يستعين بالله على القيام بعبوديته .

عموم رقابة الله عز وجل على كل شيء، ولا يفوته شيء ولا يخفى عليه شيء.

٧ - أن الغفلة من الصفات المنفية عن الله وذلك لكمال علمه سبحانه.

٨ - تهديد العصاة، بأن الله لا يغفل عنهم.

الأحد: ٢٦/ رمضان/ ١٤٣٩هـ